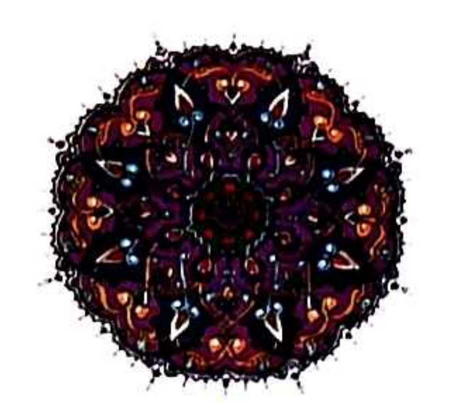


حنان لحّام

أَضْوَاءُ حَوْلَ سُورَةِ الطَّلَاق

مكتبة الإمام الشافعي

دار الحنان

أضواء حول سورة الطلاق

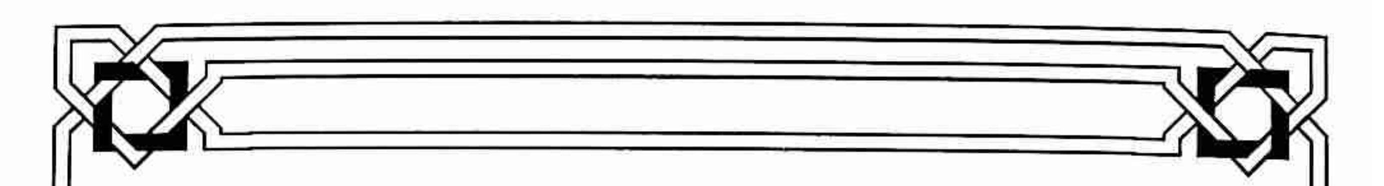

بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء حول سورة الطلاق

حنان لحام

دار الحنان للنشر
دمشق ـ هاتف : ٣٣٤٦٣٠٥
جوال : ٠٠٩٦٣ ٩٣٣٨٤٠٦٢٦

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م



الإهداء

إلى عيون دامعة تقلب وجهها في السماء باحثة عن نور جديد
يزيح ظلمات الجهل ويكشف متاهات الهوى والضلال. . . .
نور يجلي درب الخلاص للمرأة والرجل. . بل لكل الناس. .
أقدم هذه القبسات من كتاب الله الذي أنزله رحمة للعالمين. .

حنان لحام

مقدمة

كانت تغالب دمعها وهي تقول :

ـ يريد أن يرغمني على المخالعة. . حتى أتنازل له عن كل حقوقي. . لم يترك وسيلة لإزعاجي وإيلامي إلا وفعلها. . يتركني كالمعلقة وقد تزوج من أخرى. . يرفض أن يعاشرني بالمعروف. . ويرفض أن يطلق. . وقضيتي في المحكمة قد مضى عليها قرابة عام. . وأنا في بيت أهلي محرومة من حقوق الزوجية ومحرومة من الانعتاق من أسره. . ولو كنت أملك مالاً لخالعته ورددت إليه مهره حتى أحرر نفسي. . ! !

وقالت أخرى بعد أن زفرت أنفاساً حرى :

ـ زوجني أهلي ولم أتجاوز السادسة عشرة من عمري. . ومع الأيام اكتشفت أنه يتعاطى المخدرات. . بذلت جهدي لكفه عن هذا الطريق ولم أخرج من ذلك بطائل. . إلى أن قبض عليه متلبساً بجرم الإدمان وبقي في السجن سنين. . وأنا أحاول الخلاص منه بالمخالعة. . والمحامي يقول : لا تتم المخالعة حتى يوافق الزوج عليها. . والرجل يرفض أن تتركيه. . ! !

وقالت الثالثة :

ـ ابتليت بزوج لا تبارح كلمة الطلاق لسانه. . فهو يلهج بها صباح مساء. . كلما غضب أو حصل بيننا أي خلاف رمى يمين الطلاق. . ثم يعود فيبحث عن فتوى ويعود إلي. . ومن المؤسف أنه يجد من المشايخ من يفتي له بذلك. . لكنني أشعر أن حياتي معه أصبحت حراماً فتركته وعدت إلى أهلي. . وهو يلاحقني ويرسل إلي من يتوسط له عندي. . ويزعم أنني ما زلت على عصمته. . .

قد تعجب أيها القارىء من هذه الأخبار . . لكنها لقطات واقعية من حياتنا في هذا المجتمع (المسلم)!! وغيرها كثير . . فما هي إلا غيض من فيض .

قال لي زوجي : ـ يجب أن تكتبي في شرح سورة الطلاق . . فالناس لا تدرك ضوابطه ولا تعرف مدى خطورته . . وهو يستشري في جسد الأمة كالمرض العضال . . يمهد له الجهل وتردي الأخلاق . .

أجل يجب أن أكتب . . لكنني لا أدري من أين أبدأ وأين أنتهي . .

قرأت السورة مراراً . . وكانت قد أدهشتني كثيراً عندما تصديت لكتابة (مقاصد القرآن) . . فقد اكتشفت أنها السورة الوحيدة التي نصّت على عدد من المقاصد يفوق عدد آياتها . . وذهلت من قسمها الأخير الذي يتحدث عن دمار الأمم التي عتت عن أمر ربها . . وكأن الطلاق هو مظهر للعتو عن أمر الله . . وهو الذي يوصلهم إلى ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا . . ﴾ [الطلاق : ٨ـ ١٠] .

فأي عذاب أعظم من هذا يا من تستهين بأمر المرأة والأسرة . . ؟!

صحيح أن سورة الطلاق لا تتقصى كل أحكامه وضوابطه . . لكنها تقدم دراسة اجتماعية عن الأمم التي تمادت في إهمال شؤون الأسرة واستخفت بحرمة العلاقة الحميمية بين الرجل والمرأة . . أمم لم تحفل بتطهير كيانها من جراثيم القهر . . وتركت جسدها نهباً للثنائية البغيضة : (ظالم ومظلوم) حتى أضحت ممزقة منكوبة . وأعلم أن المرأة ليست هي المظلومة دائماً . . بل قد تكون هي الظالمة ، فما الفرق . . ؟! المهم أن الظالم يعيش خديعة كبرى . . إذ يظن نفسه الرابح أمام الآخر الخاسر المغلوب على أمره . . ولكن هيهات . . فسرعان ما تنكشف الحقيقة وينقلب السحر على الساحر . . لأن الظلم ظلمات . . ليس في الآخرة فقط . . بل هو ظلمات في الدنيا أيضاً . . ومن أين للظالم أن يهنأ قلبه أو تأمن نفسه . . وسيبقى داء الظلم ينهش في جوانحه حتى يهلك مع من ظلم . .

أما آن لنا أن نعلن النفير كي نتعاون جميعاً على تحقيق إجراءات السلامة للأسرة من أجل أطفالنا. . مستقبل الأمة. . ؟!

وإكراماً للمرأة كي تحصل على الصحة النفسية التي تمكنها من دورها كصانعة للأجيال. . ؟!

بل ومن أجل الرجل. . وحرصاً على سعادته. . ففي العلاقات الإنسانية يتعذب الظالم والمظلوم. .

لا بد من الخروج من هذه الثنائية المشؤومة (الظالم والمظلوم). .

ولن يقر للأمة قرار حتى تجتهد في تصفية آثار الظلم البغيض. .

فهل من مدَّكر ؟!

* * *

تمهيد

وقد وجدت أن من المفيد ابتداءً أن أسجل ملاحظاتي عن :

المرأة وتحولات عصر جديد

ما زالت المؤتمرات تعقد . . والاتفاقيات تصدر من أجل رفع الظلم عن المرأة . ولكن الواقع بطيء الايقاع في زحزحة ما يسود الشرق والغرب من ضبابية حول المرأة . أقول ذلك وأنا أراقب ثلاث لوحات تطل علينا من خلال الإعلام . .

الأولى : عرض أزياء نسائي أصبحت المرأة فيه سلعة مفضوحة في سوق النخاسة .

والثانية : نرى فيها الجدل مستمراً في بعض البلدان العربية حول حق المرأة في الانتخاب والمشاركة السياسية .

والثالثة : نسمع فيها بعض الأوساط العلمية تأبى علامات التأنيث على الألقاب العلمية ، فلا يقال : الدكتورة والأستاذة والبروفسورة . . بل : الدكتور فلانة . . والأستاذ فلانة . . وكأن التأنيث تأخير للمرأة عن ولوج حضارة العصر . . وعلى هذا فقد ظهر مفهوم (الجندر) الذي يزيح الثنائية الجنسية جانباً سعياً منهم لرفض كل أشكال التمييز ضد المرأة ـ .

هل يطل علينا الزمان بأسوأ من ذلك ؟!

ناس يتاجرون بالمرأة ويختزلون أنوثتها ويستغلونها لإمتاع الرجل وتحقيق الأرباح له .

وناس قد جعلوا الأنثى مخلوقاً من الدرجة الثانية لا شأن له بمصير أمة أو حضارة.. وإنما هي قاصر تحتاج إلى من يقودها ويسوسها مهما بلغت من التحصيل العلمي والأداء المهني.

ونتيجة لذلك تأتي اللوحة الثالثة لتشطب على الأنوثة وتحكم عليها بالإعدام.. وتدفع بالنساء إلى التبرؤ والانسلاخ من هذا العيب الكبير (الأنوثة)..

وسط هذا الضياع تقف المرأة المؤمنة.. تحاول أن تزيح الغشاوة.. وتتحرر من كل محاولات (المسخ) وإن لبست مسوح الإنصاف والتكريم. فلنعد إلى القرآن.. فهو كتاب الله الذي ﴿خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] - القرآن يكرم الأنوثة ويكتسح كل تجاهل لخطورة دورها.. انظر مثلاً كيف تأتي السورة الثالثة من القرآن - من حيث الطول - تحمل عنواناً فريداً (النساء).. وتفتتح السورة بنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.. وتختم بـ ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ (الآيات ما قبل الأخيرة).. ماذا نفهم من ذلك؟

ألا نفهم منه أن الله يقلب المفاهيم الذكورية رأساً على عقب..؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لماذا تتجاهلون أنوثة المرأة وكرامتها..؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لماذا تهملون دور المرأة في صناعة الأمة..؟! بل إني أحس أن هذا الخطاب القرآني يربط بين (النساء) والدعوة العالمية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وإن تردي أحوال العالم لهو الثمرة الطبيعية لتردي كرامة النساء وعلم النساء وأداء النساء لدورهن.. في العالم اليوم يردد دعاة القدم: العالم ذكوري.. والفكر ذكوري.. ولا بد من التحرر من النظرات الذكورية.. (أسمع جعجعة ولا أرى طحناً).. أما الرجال فقد (خدعوها بقولهم حسناء).. وأما النساء - وخاصة في عالمنا العربي - فإنهن يرفعن عقيرتهن مطالبات بالحقوق.. ويتهاونَّ في رفع مستوى فكرهن ووعيهن وأدائهن لدور (صناعة الانسان) الذي خص الله به المرأة وآثرها به على الرجل.. وهل من صناعة أشرف وأهم من (صناعة

الانسان) . . ؟ وهل تقوم للأمة قائمة بدونها . . ؟

وبالتالي فإن الأنوثة امتياز في صفات وقدرات معينة تعطي المرأة الأهلية لترقية النوع الإنساني وعلى قدر ما تتعب المرأة في تعليم وترقية نفسها . . وبقدر ما يساعدها الرجال ويمنحها المجتمع من فرص ودعم كافٍ . . تأتي الثمار في رقي الأمة .

نظر الله ـ سبحانه ـ إلى هذا الواقع الذكوري فتحدث عن المرأة وإلى المرأة في القرآن . . أشعرها بكرامتها وضرب بها المثل للرجال في الإيمان ﴿ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ وتحدث إلى الرجال عنها وأوصاهم برعايتها وحمايتها وتوفير كل الضمانات لها لتتفرغ لصناعة الانسان . . ففي وسط هذا الطوفان الذكوري . . لا بد من توفير (لباس التقوى) لصد استغلال شياطين الانس لأنوثة المرأة . . ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ . . ولا بد من تكليف الرجال المؤمنين بحماية المرأة ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ فيا أيها الرجال . . احموا المرأة من كل ما يسود العصر من عدوان . . ألا ترون أننا رغم كل دعاوى التقدم في القرن الواحد والعشرين . . تكاد جرائم الاغتصاب والقتل والعنف ضد المرأة تثقب آذاننا بأرقامها المتصاعدة . . ؟! ألا ترون كيف تستغل أنوثتها إلى أقصى مدى في ترويج البضائع وتأجيج نار الشهوات التي تكتسح كيان الأمم وتدمر كل تقدم ؟! حقا إن الانسانية كلها قد فقدت كرامتها حين جرحت كرامة المرأة . .

لقد تكلمت كثيراً وكتبت عن منزلة المرأة في القرآن الكريم وما أعطيت من حقوق موازية لحقوق الرجل وما كلفت به من دور جليل في الخلافة في الأرض . . فهي مقصودة مع الرجل بقوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ . . ومسؤولة عن الإصلاح في الأرض . لكن الأمر ما زال بحاجة إلى مزيد من

البحث والتوعية في مجالات عدة ، أخص بالذكر منها ما يلي :

١ـ إيجاد دراسات تفرز الضعيف من الآثار في السنة وتنحيه لإزالة العوائق أمام ترقية المرأة .

٢ـ ضرورة التمييز بين النصوص الواردة في القرآن والسنة . . وما كتب حولها من شروح وأبحاث .

فالشرح والفهم نتاج بشري قابل للصواب والخطأ . . ولا يجوز خلطه مع الإلهي المقدس .

٣ـ ضرورة التمييز بين النصوص الواردة ـ في القرآن والسنة الصحيحة ـ وواقع المسلمين المتردي الآن . . ليس في قضايا المرأة فقط بل في كل مجالات الحياة .

٤ـ لا بد من التمييز في النصوص الواردة بين الأسس التي تمثل (مقاصد الشريعة) . . وبين الأحكام الفرعية المرحلية التي خضعت للبيئة والظروف المعاصرة لمجيء النصوص . مما يفتح المجال لاجتهاد العلماء فيما استجد للناس من أحوال لربطها بمقاصد الدين .

مثلاً : كانت المرأة في الماضي بعيدة ـ في الغالب ـ عن المعاملات المالية وقضايا السوق . . فمن الطبيعي أن تكون شهادتها أقل من شهادة الرجل والمقصد الإلهي حفظ الحقوق وتحقيق العدل .

وقد ربط الله الحكم بعلته ﴿ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ . أما الآن فإن كثيرات قد أصبحن متخصصات في التجارة والإدارة والحقوق المالية ويشغلن مناصب وظيفية تتناسب مع مؤهلاتهن العلمية . . فهل شهادة امرأة من هذا النوع تقل عن شهادة الرجل ؟ بل أليست شهادتها أفضل وأعدل من شهادة رجل عادي غير متخصص ولا متمرس في هذه الأمور ؟!

رحم الله عمر الفاروق فقد وصف بأنه كان وقافاً عند حدود الله. . لكنه تمسك بمقاصد الدين قبل حروفه. . ولذلك كانت له اجتهادات رائعة تتناسب مع التغيرات في مصالح الأمة. . ولهذا منع الزواج من الكتابية في زمنه لرفع الضرر عن العربيات المؤمنات. . وأوقف حد السرقة في عام الرمادة عندما اشتد القحط على الناس. . وأوقف توزيع الأراضي في البلاد المفتوحة على أفراد الجيش لإعمار البلدان وإنصاف أهلها .

أعود فأقول : إننا حتى الآن نبخس الأم حقها حين ننظر إلى المرأة التي تتفرغ لتربية أولادها على أنها (لا تعمل). . ؟! بل إنها تؤدي أفضل عمل إن اتصفت بالعلم الكافي. . وهو عمل لا يقدر أن ينوب عنها فيه رجل أو خادم. . ويكفي أن أذكر في هذا المجال قول النبي محمد ﷺ (أمك. . ثم أمك. . ثم أمك. .) وكيف أن الرجل المسلم ـ حتى في عالمنا المتخلف ـ يقف أمام أمه خافض الجناح منقاد القلب لمن غمرته بإحسانها فهو أطوع لها من بنانها. . ولو كانت أمهاتنا واعيات لما كانت حالنا على ما نحن عليه .

صحيح إن العالم ذكوري. . لكن الطريق مفتوح وسالك أمامك يا أختي وإن اكتنفته المصاعب . وعلى المرأة أن تكافح وتتعلم وترتقي حتى تثبت ذاتها وكفاءتها وعندها تفرض احترامها وتعيد للأنوثة معناها النبيل والجليل والجميل .

طلب مني أن أكتب عن المرأة ـ في أحد المواسم الثقافية التي تقيمها دار الفكر وكان بعنوان (النساء شقائق الرجال) ـ فكتبت بعنوان (مطلوب من المرأة) لأن المطالبة بالحقوق لا تسمن ولا تغني من جوع ـ ورحمة الله على مالك بن نبي حيث كان يؤكد في كتبه ومحاضراته على أن من أدى واجباته جاءته حقوقه ولو كانت في السماء .

❊ ❊ ❊

مدخل

كنت قد كتبت في كتابي (مقاصد القرآن) بعدما تأملت تكرار المقاصد وعددها في سور القرآن : (نلاحظ : أـ التألق الذي حظيت به سورة الطلاق في مجال المقاصد . فعدد آياتها (١٢) آية وكلها تنص على مقاصد وتتكرر المقاصد فيها قريباً من ثلاثين مرة . ما بين : مقصد للتشريع وإنزال الكتاب . . ومقصد للخلق . . وثالث لقدر الله . ما لذي نفهمه من ذلك ؟

أقول بحسب رؤيتي المتواضعة : ١ـ إن الدين الحقيقي هو تصحيح السلوكيات والمعاملات في الحياة اليومية .

٢ـ إن دمار الأمة والخسارة في الدنيا كلها تبدأ من دمار الأسرة .

٣ـ إن ظلم المرأة مشين جداً وعواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة .

٤ـ الإسلام واقعي يعترف بالطلاق لكنه ينظمه بدقة متناهية ويشحن القلوب بالموعظة والتقوى)[١] .

وإن أول ما يلفت النظر في هذه السورة : اسمها (الطلاق) فهو أمر واقعي ومشروع ولا مجال لنسخه أو منعه ، فقد يكون أحيانا هو أهون الشرين . ولا ننسى ما عاناه الغرب حتى أقر الطلاق في تشريعاته بعد أن بقي الزواج قروناً طويلة كالسجن المؤبد الذي لا فكاك منه .

ومع ذلك فإن الطلاق بغيض ووقعه شديد خاصة على نفوس أولاد الزوجين . إذ أنه يحرمهم من الإحساس بالأمان . وقد أصبح من المعروف أن الحاجة إلى الحب والأمان هي الحاجة الأساسية للإنسان بعد الحاجات

---

(١) صفحة ٣٢٥ من كتاب مقاصد القرآن ـ حنان لحام .

(البيولوجية) . ولعلي لا أبالغ إن قلت : إن كثيراً من الأمراض النفسية وحالات الجنوح والإجرام ناتجة عن التفكك الأسري وارتفاع معدلات الطلاق في العالم . ولئن كانت أُسَرُنا القديمة تؤثر الصبر الجميل ـ وغير الجميل أحياناً ـ على اللجوء إلى الطلاق . . فقد انقلب الأمر في أيامنا هذه . . واستهان الشباب رجالاً ونساء بأمر الطلاق ولجأوا إليه عند أتفه الأسباب . . إذ لم يبق صبر ولا إيثار ولا تذمم . . وتكاد المروءة أن تنسل هاربة من ربوعنا . . ذلك أن شبابنا قد ملَّ من القيود القديمة . . وانطلق في جموحه بعيداً فأعرض حتى عن النافع من الأعراف والأخلاق . . ولعل ثقل الأغلال القديمة جعلته يحاول الانفلات من كل رباط . . غافلاً عن قدسية رباط الزواج التي وصفها الله بقوله : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء : ٢١] .

وحين يكون الزواج مجرد نزوة أو رغبة في متعة بعيداً عن الدراسة والتمحيص . . ولا شأن له بأجواء الإيمان الوارفة الظلال . . فمن الطبيعي أن تنفصم عراه عند زوال هذه النزوة . . وبمجرد أن تلوح في الأفق ألوان أخرى من المتاع العاجل . . وما أكثرها في عالمنا . .

كل ذلك من شأنه أن يجعل الأزمة تستفحل . . ولا بد من اتخاذ عدد من الإجراءات للإنقاذ على رأسها :

١ ـ نشر الوعي وتعميم العلم بآيات الله في القرآن وفي الآفاق والأنفس . . أي آيات الأحكام الشرعية . . وسنن الكون وسنن الحياة الإنسانية . وأن نقدم للجيل الجديد خلاصة تجارب الأمم السابقة : كيف تقدمت . . وكيف سعدت . . وكيف انحرفت . . وكيف سقطت .

وهو أمر يحث عليه القرآن إذ يأمر بالسير في الأرض ورؤية ما حل بالأقوام . . وقد أصبح الأمر أكثر جلاء بعد أن تقدمت العلوم الإنسانية وأصبحت تقدم ثمارها عبر وسائل الإعلام المتطورة . . مما لم يكن متاحاً للإنسان في السابق .

٢ـ إيجاد مؤسسات ومراكز تساعد الشباب عند الزواج على انتقاء شريك الحياة المناسب ، وتقيم دورات تأهيلية للنجاح في الحياة الزوجية المشتركة بحيث يتعلم الجيل فن الاختلاف والشراكة واحترام الآخر .

٣ـ أن تعرض قضايا الطلاق على لجنة للإصلاح في المحكمة قبل أن يبت بها القاضي . وقد أخذت بذلك دول عدة منها لبنان حيث تحول المحكمة قضايا الطلاق قبل البت فيها إلى هيئة (إصلاح ذات البين) وقد ذكر لي أن أكثر من نصف القضايا ينجح الإصلاح في صرفهم عن الطلاق فيها .

هذه بعض الإقتراحات أقدمها على استحياء ولا شك أن العلماء والمصلحين قادرون على تقديم ما هو أفضل وأنفع .

أما إذا استحكم الخلاف ووصل الأمر إلى الطلاق . . فلا بد من معرفة الضوابط والآداب التي أمر الله بها في هذا المجال . . ولا يجوز الانسياق وراء الأعراف والتقاليد في هذا الموضوع . . فكثيراً ما تنحاز الأعراف للقوي . . وتلجم المرأة عن أي كلام .

وكذلك فإن العودة إلى (قانون الأحوال الشخصية) لم يعد كافياً خاصة بعد أن تبين لنا أن بعض بنوده كانت من اجتهاد المشرع التركي (نوري باشا) . ولن ينقذنا من تلك المتاهات إلا العودة إلى آيات القرآن التي تنص على مقاصد الدين أولاً والتي تنص على أحكام الطلاق ثانياً . . ولا يجوز لنا أن نفصل الأحكام عن مقاصدها وإلا وقعنا في الحرفية في الفهم . . والعجز عن تناول قضايا عصرنا وتمييز الحق من الباطل فيها . إن فهم الحكمة من الأحكام أمر أساسي . . يشوقنا القرآن إلى تذوق بركاته ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

* * *

بين يدي السورة

يتحدث الأستاذ عمرو خالد في (خواطر قرآنية) عن الجزء الثامن والعشرين من القرآن فيقول : (ومن اللطائف في هذا الجزء أنه ابتدأ بالحديث عن امرأة اشتكت من سوء معاملة زوجها لها في سورة المجادلة واختتم بسورة التحريم التي ضرب الله مثلاً في آخرها للذين أمنوا : امرأة فرعون ومريم ابنة عمران . والرابط بين هذه المعاني أن المرأة هي التي تصنع الرجال وهي التي تربي أبناءها على الانتماء ـ والمؤلف يعتبر موضوع هذا الجزء الأساسي : الانتماء ـ فلو عرفت المرأة قيمتها في الإسلام وتكريمه لها فستنتمي إلى الإسلام بصدق وسيكون لها دور أساسي في بناء الانتماء للاسلام في نفوس الأمة)[1] ويتحدث عن سورة المجادلة : (تبدأ هذه السورة ويبدأ الجزء الثامن والعشرون بقضية أسرة معرضة للتفكك. . رجل خاصم زوجته وقال لها : (أنت علي كظهر أمي) مما يؤدي إلى أن تحرم عليه فلا يقربها في الفراش ولا يعطيها حقها. . ظلم شديد للمرأة ، وعادة من أقبح العادات الجاهلية. . فنزلت آيات السورة لتعطي للمرأة حقها من فوق سبع سموات. . تخيل قيمة المرأة في الإسلام. . ! امرأة تجادل رسول الله. . لا بل إن السورة سميت باسمها وهي تجادله)[2] .

أحببت أن أتوقف عن (المجادلة) لما فيها من دلالات تفيدنا في موضوعنا. . وقد كان الظهار في الجاهلية نوعاً من الطلاق التحريمي. . والخبر يصور لها نموذجاً رائعاً للمرأة المؤمنه .

---

(١) ص٣٩٤ ـ خواطر قرآنية ـ عمرو خالد .

(٢) ص٣٩٦ من المصدر السابق .

المجادلة هي خولة بنت مالك بن ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت ، تقول : (كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب وقال : أنت علي كظهر أمي . ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي فإذا هو يريدني . . !! فقلت : كلا والذي نفسي بيده لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا ، فواثبني فامتنعت منه . . ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً ، ثم جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ـ فجعل ﷺ يقول : « يا خويلة ـ في ذلك رفق وتودد ـ ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » . . . فقالت : (يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني ظاهر مني . . . !! ما طلقني والله ، وإن لي منه صبية صغار إن تركتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا . . . .)[1] والرسول ﷺ يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه . . وهي تجادله . . . وتقول : اللهم إني أشكو إليك . . فما برحت حتى نزل جبريل بالآيات التي تأمر بكفارة ثقيلة . فقال ﷺ « مريه فليعتق رقبة » فقلت : والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » فقلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من طاقة . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً ـ أي مكيالاً ـ من تمر » فقلت : ما ذاك عنده . قال : « فإنا سنعينك بعذق » فقلت وأنا سأعينه بعذق آخر . فقال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه . . . »[2] .

نحن أمام نموذج عظيم لامرأة مؤمنة عصفت بأسرتها أزمة شديدة توشك أن تهد البيت وتمزق الأسرة التي دأبت خولة سنين طوالاً على رعايتها والصبر على حمايتها . . لقد رأت الأمر على أنه ليس مجرد ظلم شخصي لها . . بل إنه زلزال يهدد أسرتها التي لن تسمح بخرابها . . امرأة مليئة بالحب والعطاء . . يسيء

---

(١) الطبري ـ جامع البيان ـ طبعة ١٩٨٣ ـ ص٤٣١ .

(٢) رواه الإمام أحمد .

إليها زوجها مرة بعد أخرى وهي تصبر عليه رغم فقره وسوء خلقه.. إلى أن يزل لسانه بالتحريم وقطع العلاقة الزوجية.. ثم تفاجأ به وهو يستهين بالحرمات.. فتنتفض مسرعة إلى الرسول ﷺ ـ بعد أن فرت من زوجها واستعارت ثوباً من جاراتها ـ فهي المؤمنة التقية العاقلة التي لا ترضى بانتهاك الحرمات بل تتشبث بكيانها الإيماني والإنساني.. ولا تتنازل عن لم شمل أسرتها..

يا رسول الله إليك أشكو سوء أخلاقه.. ويترفق بها رسول الله ﷺ ويوصيها بالصبر..

يا رسول الله قد ظاهر مني.. فيقول: قد حرمت عليه. لكنها تنطلق في الجدال ملتاعة[1] كيف يحصل هذا ؟!

أبعد أن بذلت شبابي وعمري.. وأكل مالي.. وأنجبت له الأبناء ولملمت شعثهم صابرة على سوء خلقه.. أبعد كل هذا الصبر والحرص على أسرتي يتمزق كل شيء بكلمة غضب خرجت من فمه.. ؟!

والأولاد ماذا يحل بهم ؟! هل يضيعون مع أبيهم فلا يجدون من يرعاهم.. أم يجوعون مع أمهم ؟!

والنبي ﷺ ساكت لا يحير جواباً.. فتقول: اللهم إني أشكو إليك.. ويسمع الله شكواها فينزل الحل من السماء بكفارة لا يقدر زوجها على أدائها.. فتستمر في جدالها عنه.. ثم تتقاسم مساعدته مع رسول الله ﷺ.. فهل في الدنيا أجمل من حنان المرأة المؤمنة.. ؟!

وقد يظن القارىء أن امرأة من هذا النوع هي قعيدة بيتها لا تطمع في أن يكون لها حضور اجتماعي أو مساهمة في صنع الأحداث.. فلنسمع بقية

---

(١) نلمس في الخبر اسلوب النبي في تربية أصحابه على حرية الفكر والتعبير والحوار حتى (الجدال). ولم يكن يعلمهم السكوت والإذعان.

الخبر : خرج عمر مرة ومعه الناس ـ وكان أميراً للمؤمنين ـ فمر بعجوز فاستوقفته فوقف فجعل يحدثها وتحدثه. . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ؟ فقال : ويلك أتدري من هي ؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات. . هذه خولة بنت مالك. . والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا لصلاة ثم أرجع إليها . وقالت له : (هيها يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً أفي سوق عكاظ ترع الصبيان بعصاك. . فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر. . ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد . ومن خاف الموت خشي الفوت)[1] .

إنها امرأة تدرك دورها وتعرف حدود الحاكم والمحكوم فتقوم بوعظ الحاكم على الملأ وتأمره بالمعروف. .

لقد كانت المجادلة رمزاً لنضال المرأة ضد ظلم التقاليد. . ونضالها من أجل الأسرة. . ولقد شهدتُ كثيرات من النساء المؤمنات اللواتي صبرن قريباً من هذا الصبر وناضلن وضحيَّن ببعض حقوقهن حرصاً على حماية الجيل الجديد ـ مستقبل الأمة ـ من التشتت والضياع وسط ظروف تزداد سوءاً وإغواءاً بالانحلال والتفسخ. .

ومن المؤسف أن هذه التضحيات قد نظر إليها ـ في بيئتنا ـ باستخفاف. . وكأنها أمر بديهي. . وكأن من الطبيعي أن تكون المرأة مظلومة مسلوبة الحقوق. . وعليها أن تتحمل كل ذلك وتسكت. . وإلا فهي ناشز أو متمردة على الشرع. .

من أجل هذا ينبغي أن نكتب. . وأن نعود إلى بيان الحقوق والواجبات للمرأة في الإسلام ـ رغم إيماني بأن الواجبات هي طريق النهضة ـ وإلا استمرت

---

(١) ص ٢٩٠/ج ٤/ الإصابة في تمييز الصحابة/ العسقلاني .

دعاوي الغرب عنا بأن الإسلام يظلم المرأة.. واستمر المسلمون في ممارسة عملية الصد عن الإسلام.. بل إنهم يكادون يفتنون المرأة المؤمنة عن دينها..!!

يا ويح المسلمين.. أين هم من قول نبي الحب والمرحمة ﷺ « خيركم خيركم لأهله.. وأنا خيركم لأهلي » ؟!!

إن أقلام المؤرخين لا تنتبه إلا إلى البطولات السياسية والعسكرية.. لكن المرأة قد قدمت بطولات اجتماعية كثيرة.. وما زالت تحقق الإنجازات بدعمها للرجل وتغييره إلى الأفضل في كثير من الأحيان. وهي تغرس القيم العليا في نفوس الأجيال. كثيرات فعلن ذلك وما زلن يفعلن وإن بقيت أسماؤهن في الظل. فتحية لك يا أختي وأنت تقدمين عصارة قلبك وتبذلين عمرك وذكاءك وشبابك في صنع إنسان النهضة وتقويمه ودعمه.. ولئن غفل الناس عن تقدير ما تفعلين فإن الله قد جعل الجنة تحت قدميك.. يقول ﷺ « الزم قدمها فثم الجنة »

هل أستطيع الآن وبعد هذه المقدمات أن أدخل إلى رحاب سورة الطلاق ؟

سأحاول. علماً بأن السورة لا تحوي كل ما يتعلق بموضوع الطلاق. ولهذا سأختم بحثي باستعراض آيات من سور أخرى تكمل الصورة.. والقرآن يفسر بعضه بعضاً ويكمل بعضه بعضاً.

* * *

سورة الطلاق مدنية وآياتها ١٢ آية

وآيات السورة تتتابع وفق المخطط التالي :

١ـ أحكام في الطلاق	(من ١ إلى ٧)
١ـ أحكام للمرحلة الأولى (قبل انتهاء العدة)	(الآية ١)
٢ـ أحكام للمرحلة الثانية (بعد انتهاء العدة)	(الآية ٢)
٣ـ تعقيب	(آخر الآية ٢ و ٣)
٤ـ عدة اليائسة والصغيرة والحامل	(الآية ٤)
٥ـ تعقيب	(آخر الآية ٤ و٥)
٦ـ الأمر بالإسكان والإنفاق أثناء العدة وحكم الرضاع	(الآية ٦ و ٧)
٢ـ العبرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم	(من ٨ إلى ١١)
١ـ كم من قرية عتت فحاسبناها	(الآية ٨و٩)
٢ـ التذكير بنعمة الآيات	(الآية ٩و١٠)
٣ـ ختام :	
قدرة الله وعلمه	(الآية ١٢)

* * *

١ـ أحكام في الطلاق

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ ﴾ .

ابتداء أتوقف عند معنى الطلاق . . فهو مأخوذ من الإطلاق . . واستعملت الكلمة بمعنى حل رابطة الزواج . . وهذا يذكرني بأمرين . الأول : قول الله تعالى ﴿ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾ وهي العبارة التي وصف الله بها عقد الزواج . . فهو عهد ثقيل وكبير بحسن المعاملة والرعاية . ولو لم يكن ذلك لما تركت المرأة دار أبويها وحنانهما وحدبهما . . إلى بيت جديد وعشير غريب لم يسبق لها أن خبرت مشاركته . . فالرجل هنا أسير هذا العهد .

والثاني : قول رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « واستوصوا بالنساء خيراً

فإنهن عندكم عوان (جمع عانية وهي الأسيرة) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله »[١]
والنبي ﷺ هنا يصف النساء بأنهن أسيرات مما يدل على رهافة حس النبي ﷺ بمعاناة المراة . . فهي بعد الزواج قد حبست نفسها لزوجها وأولادها . . خاصة عندما يغفل الرجل عن حق (الميثاق الغليظ) الذي حبسه الله به تجاه زوجته . .
والمشكلة أن المسلمين قد تغاضوا عن تقصير الرجل واعتبروا المرأة ملزمة بالصبر على كل الأحوال .

أما حكم الطلاق : فالأصح أنه محظور إلا لحاجة وهو رأي الأحناف والحنابلة . واستدلوا بقول الرسول ﷺ « لعن الله كل ذواق مطلاق »[٢] . كما ذكر سيد سابق قوله ﷺ « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة »[٣] . وهو ما يتناسب مع حرص الإسلام على صيانة الأسرة وحماية كل طرف فيها ـ فهل الطلاق من حق الرجل وحده ؟ في الحقيقة إن الطلاق يكون لسببين :

١ـ عيوب في الطرف الآخر تضر بشريكه .

٢ـ أو حدوث الكراهية والنفور تجاه الشريك .

ومن المعروف ان المرأة تستطيع طلب الطلاق إن أساء إليها زوجها وتسبب في ضررها ومنعها حقوقها .

كما أنها تستطيع المخالعة عند حدوث الكراهية والنفور من الزوج . . على أن ترد له ما أعطاها من مهر . . وهذا يقابل أن الرجل يدفع لها حقوقها المالية في كل الأحوال الأخرى حين يكون الطلاق من طرفه أو من طرفها إن أثبتت أنه

---

(١) ج٥/ ص١٤٨ البداية والنهاية ـ الحافظ بن كثير .
(٢) ص ٢٤٢/ المجلد الثاني من فقه السنة ـ سيد سابق ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٧ .
(٣) رواه أصحاب السنن وحسنه الترمذي .

مقصر بأحد حقوقها . أما حين تخالعه فالنفور منها وليس لعيب فيه .

فلماذا نستفز مشاعر النساء بقولنا : إن الطلاق من حق الرجل وحده ـ كما يُعَنْوِنُ صاحب فقه السنة وهو من فقهاء القرن العشرين إحدى فقرات بحثه[1] ـ ؟! بل إننا نعلم أنها تستطيع أن تشترط في عقد الزواج أن تكون العصمة بيدها . . !! إن من المؤلم أن يتأثر الفقه بالثقافة السائدة ويمارس الانحياز للرجل في أبحاثه التي يفترض فيها أنها موضوعية . . انظر مثلاً كيف يورد المؤلف عنواناً رئيسياً[2] (وصايا الزوجة) وتحته عناوين فرعية : (استحباب وصية الزوجة ـ وصية الأب ابنته عند الزواج ـ وصية الزوج زوجته ـ وصية الأم ابنتها عند الزواج) ، وبحثت عن وصايا للزوج بزوجته فلم أجد . . ؟! ـ وهو عكس المنطلق النبوي الذي كان يكرر وصيته بالنساء . . حتى في مرض موته ـ وكأن الرجل أكبر من أن يحتاج إلى وصية بزوجته . . أو أن المرأة لا حقوق لها . . أو أن من المفروغ منه أن تصبر . . !!

الصيغة التي يقع بها الطلاق :

هي الصيغة التي لم تعلَّق بشرط بل قصد بها من أصدرها وقوع الطلاق في الحال . كأن يقول لزوجته : أنت طالق .

وأما الطلاق المعلق فيقول فيه ابن تيمية وابن القيم : إن الطلاق المعلق الذي فيه معنى اليمين غير واقع وتجب فيه كفارة اليمين إذا حصل المحلوف عليه . وهي إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام[3] لأن الرجل كان يقصد به الحمل على فعل أمر أو تركه أو تأكيد الخبر ولم يكن يقصد الطلاق من زوجته .

---

(١) ص ٢٤٦/ المجلد الثاني من فقه السنة .

(٢) ص ٢٣٣ ـ المجلد الثاني من فقه السنة .

(٣) ص٢٦١ من المصدر السابق .

وأما الطلاق الشرطي ـ أي متعلق بشرط ـ كأن يقول : (إن أبرأتني من مؤخر صداقك فأنت طالق/ أو ما شابه فقد أجمعوا على أنه يقع عند حصول الشرط الذي نصت عليه العبارة .

وعلى هذا نجد أن الله قد فرض غرامة على كل من تعود الحلف بالطلاق. . وهي كفارة اليمين. . لكن الأمر ينبغي أن يدعم بإجراءات اجتماعية وتربوية. . ولن تتغير الثقافة الاجتماعية السلبية حتى تؤدي الأسرة الصالحة دورها الايجابي .

❊ ❊ ❊

١ ـ أحكام للمرحلة الأولى من الطلاق

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾

تدخل السورة بنا مباشرة إلى موضوع الطلاق. . وكأن قرار الطلاق قد أخذ. . بقي أن نحيطه بأفضل ما يمكن من ضوابط لتخفيف الأضرار بقدر الإمكان وبالشكل الذي لا يضيع فيه حق كل فرد من أفراد هذه الأسرة التي تعصف بها رياح الفرقة .

وفي عالمنا اليوم تتضرر المرأة بالطلاق أكثر من الرجل فهي تخسر بيتها وأولادها واستقرارها. . وفرصها في الزواج مرة أخرى ضعيفة. . لأن المجتمع ينظر إليها بإدانة. . وأحياناً تحرم من فرص العمل لإعالة نفسها فتصبح عالة على أهلها. .

ولأن الله يعلم أن الرجل قد يطلق زوجته في ثورة غضب دون الرجوع إلى القاضي فقد كبح جماحه بفرض العدة ، فلا يستطيع أن يبت بطلاقه إلا بعد ثلاثة أشهر وهي مدة كافية لمراجعة الذات. . ولتدخل (أولاد الحلال). . كافية لاختبار العواطف وتقليب الأمر في كل وجه للوصول إلى القرار الصائب. . خاصة وأن مطلقته تساكنه وما زالت تدير شؤون الأسرة والبيت. . فهي قريبة وبعيدة. . يراها ولا يستطيع أن يقترب منها. . !! ولن يقدر على المضي على هذا المنوال ثلاثة أشهر ما لم يكن الخلاف جذرياً ومستفحلاً. . فالعدة لمصلحة المرأة وليست عبئاً عليها. . ثم هي لمصلحة كل الأسرة. . وقد ينكشف فيها حمل المرأة فيعود الزوج إلى صوابه رحمة بأولاده .

أما المرأة فلا تستطيع إيقاع الطلاق إلا عن طريق القضاء. . فلا بد أن تقدم ما يثبت تقصير الرجل أو عجزه عن إعطائها حقوقها ومعاشرتها بالمعروف . فإن كانت كارهة نافرة لجأت إلى الخلع وعندها يُحرم الرجل من فرصة العدة

لأنها لا تريد العودة إليه . وقد علم الله أن المرأة لن تلجأ إلى الخلع إلا إذا برَّح بها الأمر لأنها تعلم أنها ستترك كل شيء ، وتغرَّم برد المهر إليه . . لتفتدي نفسها . ولهذا يبت الخلع بينهما ولا مجال لمطالبة الرجل بالعودة إليها . لكنها لا تتزوج من جديد إلا بعد حيضة لاستبراء الرحم .

هذه إجراءات محكمة لصيانة الأسرة ورعاية كل الأطراف فيها دون أي محاباة فتبارك الله أحكم الحاكمين .

يتوجه الله إلى النبي المعلم وكأنه يمثل مع أصحابه كياناً واحداً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ . . فهذه الأحكام يخضع لها الجميع . . ولا مجال لأن يرتفع أحد فوق قانون الله ولو كان نبياً . بل إن النبي هو أول من يمتثل له . . ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي مستقبلات العدة . ولا يكون هذا إلا إذا طلقت المرأة بعد أن تطهر من حيض أو نفاس وقبل أن يمسها . فقد ذكر أن ابن عمر رضي الله عنه طلق امرأة له وهي حائض تطليقة ، فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فقال : « مره فليراجعها ، ثم ليطلقها إذا طهرت أو[1] وهي حامل » .

ما وجه الحكمة في ذلك ؟

١ـ إن طلاقها أثناء الحيض يطيل المدة عليها وفي ذلك إضرار بها .

٢ـ تتعرض المرأة أثناء الحيض لتعب جسماني ونفسي . . وقد تصاب بالاكتئاب في هذه الفترة . . ورب العالمين يرأف بها من أن يزيد عليها الأمر بالطلاق . . ولهذا يأمر زوجها ألا يطلقها حتى تطهر . . وبعض العلماء يجعل الطلاق باطلاً إن حدث أثناء حيض الزوجة .

٣ـ إما أن يطلق الرجل عند طهر الزوجة ـ قبل أن يمسها ـ او يطلق بعد أن يتبين حملها وبهذا يكون الطرفان على بينة من أمر العدة التي تستمر طيلة فترة الحمل . . وتصبح الفرصة هنا أطول لدراسة قرار الطلاق فهناك طفل يستعد

---

(١) أخرجه النسائي ومسلم وابن ماجه وأبو داود .

للخروج إلى الحياة وهو محتاج لرعاية أبويه . . ولأسرة متلاحمة متراحمة .

فالطلاق البدعي : هو المخالف للمشروع : كأن يطلقها ثلاثاً بكلمة واحدة . أو ثلاثاً متفرقات في مجلس واحد . أو يطلقها في حيض أو نفاس أو في طهر باشرها فيه . هذه حالات منهي عنها واتفق العلماء على وصفها بأنها (طلاق بدعي)[1] . وقد روى النسائي من حديث محمود بن لبيد قال : أَخبرْنا رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته بثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان فقال : « أيُلعَبُ بكتاب الله وأنا بين أظهركم » حتى قام رجل فقال : يا رسول الله أفلا أقتله ؟ فتأمل مقدار خطورة هذه المخالفة . . ! !

﴿ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ .

والأمر بالإحصاء لأمة أمية خروج بها من عالم البداوة وأوهام التخمين إلى الحضارة والدقة العلمية . .

لقد دخلت العلوم الرياضية والفلكية حتى في جانب العبادات . . فهم يصومون ويفطرون ويحجون برصد الهلال ويصلون أوقاتهم برصد تحركات الشمس . . إنها نقلة هائلة خطى بها العرب مع الاسلام فتبوؤا مكان الريادة خلال مدة قياسية بالنسبة لنهضة الشعوب . . فهل نعاود الكرَّة ؟ !

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ .

سيتكرر الحديث عن التقوى في هذه السورة وخلال (١٢ آية) خمس مرات . . ما بين أمر أو وصف لنتائج التقوى . . والله لا يكتفي بالأمر بصيغة معينة . . لكنه يبين لنا الحكم والمنافع لأن الله سبحانه وتعالى يريد من الانسان أن يكون عاقلاً متفهماً لأبعاد الأمور وليس مجرد متلقٍ يخضع للأوامر .

فما هي هذه التقوى التي يجعلها الله سبباً للفرج والخروج من الأزمات . . وسبباً لليسر والرزق و . . . ؟! بل إنه سبحانه وتعالى يجعل الوصول إلى

---

(١) راجع البحث في ٢٦٥ من المجلد الثاني من فقه السنة .

(مرتبة التقوى) مقصداً لكثير من أحكام دينه . . وكثيراً ما يعقب على الأحكام بـ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

(بعض الناس يعطي صفة التقوى لـ(الدراويش) البسطاء . . وبعضهم يطلقها على من يكثر من أشكال العبادة وآخرون يقولون : هم الذين يتركون بعض الحلال ويحرمون أنفسهم من الطيبات خوفاً من الوقوع في الحرام . . فهل التقوى تعني ذلك ؟! إنني أحس أننا قد ظلمنا مفهوم التقوى كثيراً بهذه التعريفات . . فالتقوى حالة من التوتر واستنفار الذكاء لتحاشي العقبات والمطبات . . كما وصفها أبي بن كعب حين سأله عمر عنها فقال : (أما مشيت في طريق فيه شوك ؟ فماذا فعلت ؟ قال شمرت واجتهدت . قال فذلك هو التقوى) . لكن ما الذي ينشيء هذه الحالة التي تتنافى مع الغفلة كلياً . . بل تمثل قمة اليقظة واستنفار الذكاء . . ؟ ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « التقوى ها هنا » وأشار إلى صدره (رواه مسلم) فهي حالة صلة مع الله سبحانه وتعالى يعيشها الفكر والقلب وينطلق إشعاعها على سلوك الانسان فيدفعه إلى الاجتهاد الفكري وتأمل العواقب لكشف سنن الله في الحياة . . كي يراعيها ولا يصطدم بها فيكون من الخاسرين . وبهذا نجد التقوى قد جمعت بين : الإخلاص لله+ العلم بسننه+ الالتزام العملي بما استيقن من علم . أي أنها : (إخلاص + علم+ عمل) وهيهات أن تكون مجرد (دروشة) أو تشدد وحرمان مما أحل الله . . أو مجرد طقوس سطحية لا تمت لسنن الله سبحانه وتعالى بصلة . إن التقوى مفتاح للفلاح في الدنيا والآخرة وامتياز يؤهل الأمة لقيادة العالم . . فأين نحن من التقوى في عالمنا . . ؟! وأين تدبر العواقب والالتزام بسنن الله ؟! ولو أقاموا سنن الله سبحانه وتعالى لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . .)[1] .

---

(١) ص٢١٦ من مقاصد القرآن الكريم ـ حنان لحام .

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ .

أيها الرجال كيف تتجرؤون على طرد نسائكم من البيت . . ؟ والآية تدخل إلى مجال : ﴿لا مُفكر فيه﴾ حيث تتحدث عن بيت الزوجية . . إنها (بيوتهن) وليست بيوتكم أيها الرجال . . وإنني أتعجب كيف لم ينتبه العلماء إلى هذه الإشارة الواضحة . . فهم يتحدثون عن عدم إخراج المعتدة من بيت الزوجية حتى تنقضي عدتها . . وعندها يستطيع الرجل إخراجها . . ولا يقفون عند : لماذا قال الله عن هذه البيوت (بيوتهن) ولم يقل بيوتكم ؟! مع أن المعنى الذي يريدونه يكتمل بقوله (بيوتكم) . . أما « بيوتهن » فهذه معضلة على الرجل المسلم . . مع أننا لو نظرنا إلى الأمر بواقعية . . وفحصناه من جميع جوانبه . . لأدركنا قوله تعالى « بيوتهن » .

من الذي يدير شؤون البيت ؟ من يعتني بالأولاد فيه ؟ من ينظف ويرتب ويطهو . . ؟ من يمكث فيه الوقت الأكبر . . ؟ وما معنى البيت إن كان خالياً من سيدته (الزوجة) ؟

لا شك بأن الرجل هو الممول للبيت في الإسلام . . لكن في كل الشركات والأعمال التجارية قيمة المدير العامل أكبر من قيمة الممول . . وحقه في الأرباح أكبر . هذا إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة اقتصادية . . فمن المعلوم أن الأعمال المجانية التي تقوم بها المرأة في البيت وعلى مدار ستة عشر ساعة يومياً على الأغلب . . باهظة عند الإحصاء ـ هذا إذا لم تكن تشارك في الإنفاق على البيت كما يحدث الآن في كثير من الحالات ـ أما الأعمال الفكرية والعاطفية التي تبذلها المرأة في البيت لتحقق حالة السكن وحسن التوجيه في الأسرة فلا تقدر بثمن . . تأمل : من يسهر على المريض في البيت ؟ ـ من يذاكر للأولاد دروسهم ؟ من يساعدهم على التفاهم وحل مشاكلهم ؟ من يستمع إليهم ويحاورهم ؟ من يزيل عن الزوج وعثاء العمل . . ؟ من . . . ؟ ومن . . ؟ لقد علم الله كل هذا وأكثر مما لم أذكر . . فقال « بيوتهن » . .

حين أتكلم في هذه الأمور أواجَهُ بهجوم شديد من المسلمين ويتهمونني بأنني أتبع تقاليد الغرب ونظمهم وأحاول أن أقدم الإسلام بحسب أهوائهم وإعجاباً بهم. . !!

يا مسلمون. . أمن المعقول أن يكون النظام الغربي أكثر إنصافاً للمرأة من دين الله. . ؟

ألا يخجل المسلم من دفن رأسه في الرمال كالنعامة أمام ما يكال له من اتهامات باستعباد المرأة. . ؟!

فأين نحن من نداء الله لنا « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » [النساء : ١٣٥]. . ؟!

يا مؤمنون استجيبوا لربكم الذي يقول ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ ويا مؤمنات اسمعن قول الله لكن : ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾. . فلا تستسلمي أيتها المؤمنة للأعراف ببساطة. . ولا تخرجي عند الطلاق من البيت نكاية بالرجل إنه بيتك ومملكتك فأحيطيه بلمساتك الفريدة الحانية. . لا تتركي البيت وتفرطي بالأولاد أمام نزوة غضب من زوجك. . فإن الله لا يرضى أن يتشتت شمل الأسرة بهذه البساطة. . بل يأمر ببقائك معتدة في بيت الزوجية ثلاثة أشهر. . ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾. . لعل الزوج يرجع عن تسرعه ويعود الوئام. . قد يقول قائل : وأين كرامة الزوجة. . ؟ لقد أهانها بكلمة الطلاق. . فلتترك له كل شيء وتمشي. . أقول : بل إن هذا الحكم فيه كل الكرامة للمرأة. . وكأن الله يقول لها : بل أنت ربة البيت. . والبيت بيتك فليمشِ هو إن شاء. . وإن الله لا يضيع المرأة والأسرة بكلمات طائشة خرجت من فم الرجل. . وكأنه يقول للرجل لقد تكلمت دون أن تفكر. . وقد أعطيتك مهلة ثلاثة أشهر لتعيد التفكير بقرارك. . إكراماً لكيان الأسرة .

كل هذا التكريم للمرأة المؤمنة المحصنة. . فإن جارت وانحرفت فلا كرامة لها. . ولا يسمح لها بأن تزرع العفن والفساد في بيت الزوجية الذي هو مصنع

الأجيال. . لكن انحرافها ينبغي أن يكون واضحاً وبيناً وليس مجرد شكوك أو تهم خامرت الزوج وأصابته بالوسواس وهو ما تؤكده الآية ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ ويأتي التعقيب على هذه الأحكام الأسرية صارماً وشديداً لا مجال للترخص فيه :

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ .

إن الله يحيط أُمَّته المؤمنة بحدود مرسومة. . داخلها الحب والرحمة والرضى والوئام. . فمن ترك هذه الأحكام فقد تجاز حدود مملكة الله ودخل في الظلمات والمتاهات. . فيا ويحه قد ظلم نفسه. . لقد أحاطه الله بالرحمة وعَلَّمه كيف تكون الحياة الكريمة باحترام شريك الحياة وإعطائه ما يستحق من حب وتعاون. . لقد علَّمه الله ومنحه كل الفرص كي يحصل على حياة عادلة وسعيدة. . لكنه اختار التعدي والخروج. . واستهان بالحدود فتجاوزها. . وعندها حرم نفسه من العدل والحب والرحمة. . ومن لا يرحم لا يُرحم. . ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء : ١٤] .

سيدخل نار الدنيا قبل نار الآخرة. . لقد حرم قلبه من حلاوة العدل والرحمة. . وأوغر صدر زوجته وأولاده ضده. . وربما دفعهم للانتقام منه. . لقد حرم نفسه من فرص التفكير والمراجعة فهو يجني أوخم النتائج على نفسه وأسرته. . لقد نسي أن أولاده يتلقون منه الدروس ويتشربون منه العتو والتجبر. . وسيردون له الصاع صاعين عندما يشيخ أو يضعف ويصبح بأمس الحاجة إلى رعايتهم ومن العجيب أن الإنسان يحب نفسه ولا يفكر في ظلمها. . لكن جهله بالأنفع وبما هو خير وأبقى يوقعه في ظلم نفسه .

والآية هنا تصرِّح بوضوح أن من مقاصد نزول الأحكام. . تحقيق العدل وإبعاد الإنسان عن الظلم والتظالم وهو المقصد الأول الذي تشير إليه السورة .

وهو مطلب أساسي لتحقيق السعادة والصحة النفسية للإنسان. . وهو حجر

الأساس لتوازن الأمة أثناء سيرها في طريق التقدم والارتقاء . . إن من يتدبر القرآن الكريم يحس بأن الأديان إنما أنزلت لمنع الظلم وتحقيق العدل . فإن قلتَ : بل التوحيد هو الغاية العظمى للأديان . . فما معنى التوحيد ؟ إن التوحيد هو الذي يجعل الناس كلهم سواء في العبودية لله وحده . فلا استكبار ولا استضعاف . ولا طاغية يعلو على القانون . . ولا عبيد تداس بدون حقوق . .)[1] .

« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » وهي إشارة هامة إلى أن من مقاصد الأحكام الوصول إلى الوئام والصلح .

إن إرادة الله وسننه وأحكامه كلها لتحقيق الخير لهذا الإنسان . . لكن الله أراد أن يختار الإنسان ويفعل حتى تتحقق نتائج سنن الله . صحيح أن الله هيأ كل الظروف لإحداث الصلح . . لكن الأمر بيد الإنسان .

هذه الآية تشير بوضوح إلى إمكانية العودة ومراجعة الزوجة والإعراض عن الطلاق . وذلك قبل انقضاء العدة . وصحيح أن هذا التصرف يحسب عليه طلقة واحدة . . ولكن تدارك الأمر ميسر . . . وزوجته أمامه يستطيع أن يصالحها ويراضيها دون اللجوء إلى إعادة العقد وموافقة الولي . . لكن لا بد من الإشهاد على الطلاق وعلى المراجعة كما سيأتي فيما بعد من الآيات .

فإن لم تكن الزوجة راضية . . فيمكن أن تطلب التحكيم . . أو ترفع الأمر للقاضي ليسمع شكواها . . وعلى الجميع أن يجتهد في إيجاد صلح مبني على حل عادل .

* * *

---

(١) ص ١٦٥ مقاصد القرآن الكريم ـ حنان الحام .

٢ـ أحكام المرحلة الثانية

(بعد انتهاء العدة)

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

لقد انتهت المهلة وعلى الرجل أن يحزم أمره فإما أن يراجع زوجته ويعود إلى معاشرتها بالمعروف وإما أن يمضي في طلاقه ويفارق زوجته ولكن بالمعروف أيضاً . .

فما هو المعروف ؟ هناك معروف اجتماعي تعارف عليه الناس وأَلِفوه . . وهناك معروف قرآني وهو ما أمر الله به من أخلاق ومعاملات . . فإن التقى المعروف الاجتماعي مع القرآني أو أَلِفَ الناس سلوكيات لا تتنافى مع الأدب الإيماني ولا تتضارب مع مقاصد الدين . . أصبح مطلوباً . . مثلاً : بعض المجتمعات تعارفت على أن ينادي الزوجان بعضهما بالإسم . بينما في مجتمعات أخرى تفترض الآداب أن لا ينادي أحدهما الأخر إلا بأم فلان وأبي فلان . . أو غير ذلك من الألقاب . . كل ذلك لا حرج فيه ومراعاة العرف الاجتماعي هنا أولى . .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ . . أتأمل الآية الوجيزة البليغة . . فالمعروف والإحسان مطلوب في كل حال . . ومن مقاصد نزول الأحكام رفع الإنسان والارتقاء به إلى مستوى المعروف والإحسان . . وربما نحن بحاجة إلى توضيح كيف تكون المفارقة بالمعروف أكثر من حالة الإمساك .

تخيل كيف يكون الإنسان في حالة الغضب والكراهية . . ! هل يستطيع أن يكف لسانه فلا يتكلم إلا بخير عن مطلقته . . ؟! ويعطيها كل حقوقها وزيادة ـ لأن المعروف هو الإحسان وهو الزيادة على العدل ـ ؟!

روي عن رجل اختلف مع زوجته فسأله أصحابه : ما شأنها ؟ فقال : وهل من المروءة أن يتكلم الرجل عن زوجته ؟! فلما طلقها قالوا له : لم تعد الآن

زوجتك فما علتها ؟ قال : وهل يجوز لي أن أغتابها ؟!

ومن المعروف عن الطيبين الكرام في بلدي أنهم إن حدث طلاق وسئلوا عن السبب يقولون : (ما في نصيب) أقول هذه العبارة هنا جميلة ومستحبة.. لأنها تقطع الطريق على قيل وقال.. والولوغ في أعراض الناس بعد ذلك.. أما حين نقولها لنبرر أخطاءنا وفشلنا فهي شنيعة جداً.. لأنها محاولة لتبرئة الذات مما يؤدي إلى فقدان النقد والتصحيح.. وفيها خلل بالإيمان بالله وسننه.. وما كان الله ليظلم أحداً أو يضيع جهده وعمله.. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٤].

إن المفارقة بالمعروف تشمل : إعطاء الحقوق المالية : من مهر ونفقة ومتعة (وهي هدية تقدم للمطلقة بعد الطلاق طاعة لأمر الله ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤١].. وتشمل عدم الحرمان من أولادها وحضانتهم وترك المضارة لانتزاعهم منها وعدم إخراجها من بيتها وتشمل عدم إيذائها وتشويه سمعتها.. وإيغار صدر أولادها ضدها..

والخطاب القرآني يتوجه إلى الرجال خاصة.. لكن المعروف مطلوب من الرجال والنساء.. وكل ما يطلب من الرجل من خلق طيب وتجمل.. مطلوب من المرأة.. فإن تنكّبا طريق الخير والمعروف وزرعا الكراهية في أولادهما فسيحصدان الحقد والعقوق.. ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٤٣].

﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾.

ورغم أن (أشهدوا) فعل أمر يتوجه من الله إلى المؤمنين.. فقد وُجِدَ من قال بوقوع الطلاق بدون إشهاد بل زعموا أن (جمهور الفقهاء من السلف والخلف)[1] قد ذهبوا إلى ذلك.. ؟! يناقش صاحب فقه السنة الأمر ويقول :

---

(١) ص ٨٥/ المجلد الثاني من فقه السنة ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٧ .

(إن دعوى الإجماع . . في بعض كتب الفقه مراد بها الإجماع المذهبي لا الإجماع الأصولي الذي حده . . اتفاق أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور الدينية . . إن وجوب الإشهاد لم ينفرد به علماء آل البيت عليهم السلام . . بل هو مذهب عطاء وابن سيرين وابن جريج . .)[١] .

أردت أن أقف عند هذا الأمر لخطورة موضوع الإشهاد من جهة . . ولألفت النظر إلى ضرورة التمحيص فيما تقوله بعض كتب الفقه وتعطيه طابع الإجماع أو (جمهور السلف) من جهة أخرى مع كل الاحترام لما قدمه فقهاؤنا في الماضي والحاضر من تراث فقهي . . لكنه ليس مقدساً ، ويبقى القرآن فوق كل كلام .

﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فالشاهد ينبغي أن يكون مسلماً (منكم) ـ وموصوفاً بالعدالة . . أي موثوقاً في صدقه وأخلاقه وفهمه للأمور . .

إن الآية هنا تنص على مقصد هام من مقاصد الدين وهو : تحقيق العدل لهذا الإنسان ومنع الظلم . .

والمرأة اول من يتضرر من إهمال الإشهاد . . لأن سمعتها أساسية في حياتها . . وينبغي أن يعرف الناس كلهم هل هي زوجة أم مطلقة . . ومن هو زوجها أو طليقها . . ثم يتضرر الزوج والأولاد وأسرتيهما . . ويتضرر المجتمع كله . . من عدم وضوح العلاقات بين الرجال والنساء . .

فكيف نفرِّط في الإشهاد عند الإمساك أو التسريح . . ؟! وفيه كل هذا الإنصاف للمرأة والأسرة والأمة . . ؟!

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ .

إنها وصية لمن يشهد ولمن احتاج إلى من يشهد : ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ كما قال ﴿ وَأَنْ

---

(١) ص ٢٦٠ من المرجع السابق .

﴿أَقِيمُواْ﴾ يقول ﴿أقيموا الشهادة﴾ فكلاهما عبادة لله تحتاج إلى استحضار هيبة لله.. وطلب القرب والرضا منه .

كيف نفهم إقامة الشهادة ؟!

أثبتوها في المواضع التي أمركم الله بها.. وأنتم أيها الشهداء لا تتخلفوا عن دور الشهادة ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة : ٢٨٢] أي إن طلب منكم الحضور لتشهدوا الأحداث.. ولا تتأخروا عن إعلان ما شهدتم عليه.. وليبلغ الشاهد الغائب.. هل يكفي ما قلت.. ؟!

إن كلمة (أقيموا) أقوى من كل ما قلت . لأنها أداء على أحسن وجه وبكل الجدية والالتزام.. افعلوا هذا الأمر ﴿لِلَّهِ﴾.. فأخلصوا له واطمئنوا إليه فإنه يريد لعباده أن تستقيم أمورهم وأن تُتخذ كل الضمانات لإحقاق الحق ومنع الاشتباه والتلاعب..

* * *

٣ـ تعقيب ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾

هذه الأحكام يوعظ بها المؤمنون ويُنصحون كي يحموا أنفسهم من المخاطر ويتجنبوا عواقب الإعراض عن أمر الله.. فلك الحمد يا رب على كل هذه الرعاية والمحبة.. ومع ذلك يعرض عن هديك المعرضون ويغفل عنك الغافلون.. وأنت يا رب ترعى الجميع وترزق الجميع وتعظ الجميع.. لكن لا ينتفع من كل ذلك إلا المؤمنون .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ .

وهذا وعد كبير لكل من ﴿ يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾.. ولا عجب فإن من يتقِ الله يتعلم سننه في الحياة ويقوم بكل ما عليه من أسباب وواجبات.. وعندها تأتيه الحقوق من كل مكان.. بأمر من الله..

﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ وعد للرجل المؤمن وللمرأة المؤمنة.. بأن يجدوا من كل ضيق مخرجاً..

فلتهنأ نفسك أيتها المؤمنة ولتهنأ نفسك أيها المؤمن.. فإنك موعود من ملك الملوك من رب السموات والأرض بالفرج والكسب والنجاح .

وإن من مقاصد أحكام الله أن تحقق لك النجاح وتفرج الهموم حتى يحصل المؤمن على الأمن والصحة النفسية.. واسأل كل مؤمن ومؤمنة عن عذوبة الركون إلى الله بعد أن يؤدي واجبه..

.. بل وأكثر من ذلك ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ يأتيه الرزق الذي لم يتوقعه في كثير من الأحيان .

حقاً إن التقوى هي اعظم الرزق.. فبها يتحقق الإنعام من الله.. وبها ازدهار الاقتصاد وضمان الأرزاق بينما يمحق الله الربا.. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

هل نحن في حاجة إلى فهم معنى التوكل ؟

التوكل ليس تسليماً أعمى بدون بصيرة. . بل هو معرفة بسنن الله والتزام بأوامره . فهو معرفة والتزام ثم تسليم ورضا. . فأما المتواكلون فإنهم تركوا البحث والاجتهاد. . وسلموا بزعمهم لرب العباد. . فكيف يصلون إلى المراد. . ؟!

وأما المعرضون فقد قطعوا الري عن قلوبهم. . وظنوا أنهم في غنى عن نور ربهم. . لقد اغتروا بأعمالهم وحذفوا التوكل من حياتهم. . فلئن ربحوا مرة فقد خسروا مرات. . ولا عزاء لهم في ثواب من الله أو رضا في الآخرة . وكما فهمت من ابن تيمية : إنه يجعل المتوكلين هم الوسط بين من عطلوا الأسباب ومن ألَّهوا الأسباب. . فهم يعملون ويتوكلون. . وهم بذلك مطمئنون. . فالله حسبهم. . هل هذا يشرح قولنا ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ . . . ؟

إنها العبارة التي قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار. . وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1] فماذا حصل ؟ فأما إبراهيم فقد نجاه الله من النار « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » [الأنبياء : ٦٩]. . وأما محمد ﷺ وأصحابه ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وأنا هنا لا أتكلم عن خوارق. . لكن سكينة الإيمان والتوكل تعطي العقل صفاء والنفس تماسكاً فيصبح الإنسان أقدر على الخروج من الأزمات. . هذا الإيمان هو جزء من الأسباب التي تعين المتوكل على الوصول إلى الفرج والمخرج والرزق. . إنها سنن الله التي لا راد لها في الحياة. .

---

(١) كما ورد في البخاري عن ابن عباس . والآية من آل عمران ١٧٣ـ ١٧٤ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ .

إن أمر الله نافذ . . وسنته ماضية . . وليست الأحداث (خبط عشواء) ، بل كل شيء مرتب ومحسوب . . ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] . . والألطف من ذلك أن الله يعطينا مفاتيح القدر . . ولله در الجيلاني حين قال : (فنازعت أقدار الله لله وبالله) .

تنتقل السورة بنا بعد ذلك إلى بيان أحكام في العدة .

* * *

٤ـ عدة اليائسة والصغيرة والحامل

﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾

العدة : مأخوذة من العد والإحصاء . وهي اسم للمدة التي تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن الزواج بعد وفاة زوجها أو طلاقه لها حتى تنقضي هذه المدة . وقد بين الله هذه المدة في آية أخرى :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] والقروء جمع قرء : وهو الحيض .

والآية هنا تبين حالات غياب الحيض وهي ثلاثة :

١ـ الكبيرة اليائسة من الحيض .

٢ـ ﴿واللائي لم يحضن﴾ لصغر في السن أو لعلَّة أومرض . فعدتهن كاليائسة ثلاثة أشهر .

٣ـ ﴿ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ سواء كانت في أول حملها أو في آخره . . فما السر في اختلاف عدة الحامل ؟

ـ أما إذا كانت في أول حملها . . فينبغي أن تمدد العدة حتى الوضع كي تعطى فرصة أكبر للصلح والمراجعة رعاية لهذا الطفل القادم المحتاج إلى والديه . والمرأة في حالة الحمل غير مستعدة لزواج جديد فهي متعبة من حملها ولا تفكر إلا في مصلحة جنينها . . ومطلقها مكلف بتأمين حاجاتها ورعاية أمورها طيلة العدة . .

ـ وأما إن كانت في آخر مدة حملها فالعدة قصيرة . . وعلى الرجل أن يحزم أمره فإما أن يعود إلى زوجته وابنه . . أو يتركها لتجرب حظها مع رجل آخر يعوضها ويرعاها . . ولا معنى لإمساكها أكثر من ذلك .

ـ فهل هناك حالات من الطلاق لا عدة فيها ؟

لدينا حالتان :

١ـ الزوجة غير المدخول بها لا عدة عليها لقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب : ٤٩] .

والحكمة هنا أن النفور إن بدأ من هذه المرحلة فمن الأفضل الانفصال قبل أن يأتي الأولاد .

فمن المعروف أن هذه المرحلة تكون مليئة بالإثارة والتلهف من قبل الطرفين . . فإن حصل نفور وجفوة قبل الدخول فكيف سيكون الحال بعد أن تذهب الأيام الوردية وتأتي الأعباء وتنكشف العيوب . . ؟! فلا معنى للعدة هنا واستبراء الرحم حاصل .

٢ـ عند الخلع . . لا عدة على المختلعة . . لكنها لا تتزوج حتى تحيض حيضة خشية ان تكون حاملاً .

ولهذا قال بعضهم (تعتد بحيضة واحدة) . وطالما أن المرأة هي الكارهة فليس للزوج أن يراجعها . .

* * *

٥ـ تعقيب

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾

أتسمعون أيها المؤمنون والمؤمنات . . ؟ إن ربكم يدلكم على المخرج من كل ضيق . . وعلى الدواء لكل علة . . وعلى اليسر من كل عسر . . إنه يسلمكم مفتاح كل مشكلة . . إنه التقوى . .

التقوى : إخلاص لله ومعرفة بسنن الله في الحياة وعمل بأسباب الفلاح . .

إن الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . . ولهذا شرع الأحكام وأنزل عليكم الكتاب ليحميكم من التعب والمشقة ويمنحكم الأمن والسكينة لنفوسكم .

﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ ﴾

اليسر هو أمر الله الذي أنزله إليكم . . ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢] . . فقل لكل المعَسِّرين والمتعنتين . . ولكل من يتشدد في الدين . . لقد برئت منك روح الدين . . وخرجت عن نهج الرحمن الرحيم .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ .

فليس الأمر في الدنيا فقط . . وإنما التقوى هي مفتاح الآخرة حيث تجلو التقوى القلوب من سواد السيئات وتضخم ثواب الحسنات . . فهنيئاً لمن درب نفسه على التقوى . . ثم ارتقى إلى الإحسان فبحث عن كل عمل جميل في كل حين . . يتحرى الأحسن عند زواجه . . والأحسن عند طلاقه . . يحاول ان يقوم بواجبه على أحسن وجه . . لأن الله يحب المحسنين . .

* * *

٦ـ الأمر بالإسكان . والإنفاق في العدة وحكم الرضاع

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ .

الأمر بالإسكان هنا واضح وغير مشروط بفترة العدة . . وإنما محدد بالمستوى الذي يعيش فيه المطلّق ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ في نفس مستوى البيت الذي تسكنون فيه . و﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ وعلى قدر طاقتكم .

﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ .

سبحانك ربي يا من وسع علمه كل شيء . . لقد علمت ما يجري في البيوت من مظالم وما يدور في النفوس من شحناء . . لقد علمت ما تفعله القوة من تغرير لصاحبها فتزين له الإضرار بزوجه وإذلالها . . بدعوى تأديبها . . لكنه لا يدري أنه يقتل الخير في نفسه . . وكيف لزارع الشوك أن يجني عنباً . . ؟!

وكثيرون يضيّقون على المرأة ويذيقونها أنواع الهوان . . كي تفتدي نفسها وتتنازل عن كل حقوقها . .

وعين الله لا تغفل عن مظلمة . . لقد سمع شكوى (المجادلة) ويسمع ضراعة كل مظلوم . . والويل للظامل عندما يحين تسديد (الفواتير) . . وياله من بيت تتصارع فيه الأحقاد وينضح بروح الانتقام . .

أهذه هي (المودة والرحمة) التي يتلهف للاستظلال بفيئها كل إنسان لتغسله من وعثاء الكد في هذي الحياة . . ؟! وهل يظن القوي أن الحب والرحمة يفقدانه مكانته في الأسرة . . ؟! فما أشد غرور القوة . . ؟!

إن الناس يظنون أن العفو يورث الذل ويضيع الحقوق . . لكن رسول الله ﷺ يؤكد عكس ذلك « ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » وكانت حياته العملية أكبر برهان على ذلك . .

فلقد ملك القلوب بعفوه وإحسانه . . وانقلب معظم أعدائه إليه راغبين مخلصين .

﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ إنها إشارة واضحة لما يحدث في كثير من الحالات . . عندما يندفع الرجل وراء كراهيته وحرصه على المال . . فهو كاره لزوجته ويريد فراقها ، لكنه يريد أن يعتصرها حتى تتنازل عن حقوقها وتخالعه . . فأين الرجولة . . ؟ وكيف يطيق الرجل نفسه إن وصل لهذا الدرك ؟!

وهناك نوع آخر من المضارة يمارسه الرجل عندما تطلب المرأة المخالعة فيرفض . . ويتعنت ويتلكأ القاضي والمحامي وتعجز المحكمة كلها بدعوى أن الخلع لا يقع إلا إن وافق الرجل . . ؟!

فمن أين جاؤوا بهذا الشرط . . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ألزم ثابت بن قيس بأن يقبل الحديقة التي ردتها إليه زوجته ويقبل بالخلعْ . وكيف ترغم المرأة على معاشرة زوج لا تريده ؟!

وتلفت نظري كلمة (تضاروهن) وليس (تضروهن) . . وكأن فيها صورة مشاركة . . اثنين يتبادلان الضرر . . فالرجل حين يسلك سبيل الضرر بزوجته يدفعها إلى أن تقابله بالضرر والإيذاء . .

وكأن الآية تجعل من الرجل المسؤول الأول عن حدوث الضرر بسوء معاملته . . فلا تدفع زوجتك دفعاً إلى هذا السبيل . . !

﴿ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

فهل الحامل وحدها من المطلقات هي التي تجب النفقة عليها . . ؟!

لم يفهم أحد الموضوع بهذا الشكل . . وإنما زيادة في التشديد والعناية بأمر الحامل تأتي هذه التوصية . . وخاصت أن عدتها قد تطول تسعة أشهر . . فارفقوا بها وأنفقوا عليها في كل حاجاتها .

خاصة

ثم يأتي المولود بعد ذلك.. وله حاجاته.. ويحتاج إلى رعاية أمه ونفقة أبيه.

﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف﴾

ليس بعد هذا من إكرام.. إن الرضاع والأمومة عمل كبير.. ووظيفة تستهلك كل عواطف المرأة وطاقاتها.. صحيح أن معظم الأمهات يتطوعن بهذا العمل.. بل يستروحن به ويعتبرنه نعمة أنعم الله بها عليهن.. لكنْ من يؤَمِّن لهن حاجاتهن كي يتفرغن لصناعة الإنسان..؟!

إن المتأمل في الآية قد يشعر أنها قد سلخت الأمومة عن كل نداوتها الانسانية.. لكن الله يشرِّع ديناً واقعياً.. ويريد حماية الأم من كل ما يُنغِّص عليها أداء دورها الرائع.. ومن أسوأ الأمور أن نُعكر صفاء الوالدة المرضع بحمل هم المعيشة ولقمة العيش.. وربما يؤدي بها ذلك إلى التنكر لأمومتها..

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾.

أرأيتم إلى أي منزلق تدفعون هذه الأم؟ إنها ستتخلى عن أمومتها وعن طفلها وتدفع به إلى أبيه الذي يريد ان يتنصل من المسؤولية ويبتز أمومتها ويجعلها تبوء بالحمل كله..

وكثيراً ما ينظر المسلمون إلى هذا التصرف من الأم باستهجان.. أن تدفع بالطفل إلى أبيه ليتكفل به.. وكلنا نكره حرمان الطفل من لبن أمه ورعايتها.. فما من شيء في الدنيا يعدل حنان الأم ولبنها.. لكن الله يقف في صفها ويقول إن هذا من حقها طالما أنك أيها الرجل قد تعاسرت معها وبخستها حقها.. ولئن كانت المراضع في الماضي متوفرة.. فقد انقرضت الآن تقريباً واستعيض عنها بزجاجات الرضاعة.. وهي مليئة بالمخاطر من حيث التعقيم ومن حيث الملاءمة لعمر الطفل وجسمه.. فإن كفينا ذلك كله.. فأين التواصل العاطفي في حضن الأم..؟! ومن يعوضه عن ذلك..؟!

إنني أهتف بالرجل والمرأة أن يرفقا بهذا الطفل. . رفقاً بأطفال الأمة فإنهم هم الأمل والمستقبل. . ألا ترحمون اطفالكم ؟! وكيف ترضون لهم بالحرمان من ثدي الأم وحنانها. . ؟!

أليس من الأفضل للجميع أن تسمعوا أمر الله لكم ﴿وائتمروا بينكم بمعروف﴾. . هناك دائماً وفي كل مشكلة. . حل يربح فيه الجميع ولا يخسر أحد. . فإن اتفقتم على مقدار النفقة ضمن إمكانية الرجل وبحسب العرف بما يناسب الأم وحاجاتها. . فإن الطفل سيربح أولاً والأم ستربح أمومتها وثوابها عند الله وتضمن معيشتها . والأب سيربح تأمين أفضل حالة لابنه وأفضل غذاء مادي ومعنوي. .

والأمة كلها تربح بضمان صناعة أفضل لأجيالها. . ولهذا يدفعهم الله للإنفاق :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾

لينفق. . أمر من الله في اليسر والعسر. . لقد وسع الله عليك أيها الرجل وأولى الناس برعايتك هم أهلك. . ويامن يعاني في تحصيل رزقه. . أنفق مما أعطاك الله. . فإن الله يعطي المنفق خلفاً والممسك تلفاً. . وإن الله لا يشق عليكم في أوامر. . بل إنه كلفكم بما تطيقون :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ .

فأنفق مما أعطاك الله وضمن طاقتك. . وأنتن يا معشر النساء لا ترهقن رجالكن بالطلبات. . ولا تتطلعن إلى مستوى فوق طاقتهم. . فكم من رجل دفعه طمع أهله إلى سلوك درب الحرام. . فاتقين الله يا معشر النساء فإنكن تضربن اقتصاد الأمة بما تستهلكن. . وما ينبغي للمؤمنة أن يكون همها التسوق والاستهلاك ولا أن تزرع في أولادها روح الاستهلاك. . إنها صاحبة رسالة تكتفي من الرزق بما يضمن لها ولأولادها حياة كريمة وضمن إمكانية رجلها. .

وإن من يلتزم أمر ربه ويحسن التصرف فيما رزقه الله دون بخل ولا إسراف . . موعود من الله باليسر :

﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .

ومما لا شك فيه أن ترشيد الإنفاق عنصر هام في تحويل العسر إلى يسر . . كما أن في الإنفاق تحريك للمال بدلاً من التكديس . . وبذلك يتحرك الإقتصاد « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »

والآية فيها وعد من الله مرتبط بسننه وأحكامه . . فمن التزم بالأحكام وقام بالأسباب حصل على وعد الله وخرج من العسر المادي والمعنوي إلى اليسر في كل مجال .

وتأمل كيف يتكرر مقصد رفع العسر عن الناس بهذه الأحكام في هاتين الآيتين . . ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .

وكم دفع الحرص على المال بالناس إلى الشح والتنازع وتضييع الحقوق .

كيف تخشى الفقر أيها المؤمن وقد تعهدك الله بالرزق منذ كنت جنيناً في بطن أمك . . ؟!

إن مفاتيح الرزق مخبوءة ضمن سنن الله وقوانينه في الكتاب وفي الآفاق والأنفس . . فانطلق مع آيات ربك تأتيك بالأرزاق راغمة ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ .

المضللة

إنني أحاول في كلامي عن الرزق الخروج من النظرات الأحادية المضلله التي نراها في اتجاهين :

اتجاه ساد بين المسلمين ينظر إلى الرزق بمنظار غيبي فهو من عند الله مقسوم ولا دخل للإنسان فيه .

واتجاه قطع الاقتصاد عن كل علاقة بالدين والله . . فهو تخطيط بشري مادي لا دين له ولا أخلاق . .

بينما يقدم لنا القرآن تصوراً سننياً للرزق يبذل فيه الإنسان جهده في العلم والعمل فيعطيه الله الثمار .

ألم يقل عن ذي القرنين ﴿إنا آتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً﴾

وقد مر معنا في أول السورة كيف ربط الله الرزق بالتقوى ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه . . .﴾ إن الله سبحانه وتعالى يقول لنا في هذا القرآن باستمرار : أنا لا أهديكم حتى تجتهدوا ولا أنصركم حتى تجتهدوا ولا أرزقكم حتى تجتهدوا . . إن عملي لن يأتي حتى تقوموا بما عليكم من عمل . .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد : ١١] .

إلى هنا ينتهي الحديث في السورة عن الطلاق وأحكامه . . وقد رأيت قبل أن أتابع أن أذكر :

الحالات التي لا يقع فيها الطلاق

١ـ طلاق المجنون لقوله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل »(١) .

٢ـ طلاق المكره لأنه لا إرادة له ولا اختيار والإرادة والاختيار هي أساس التكليف . . والمكْرَه إنما ينفذ إرادة من يكرهه .

٣ـ طلاق السكران لأنه لا يعلم ما يقول .

٤ـ طلاق الغضبان الذي أعمى الغضب عقله . لقوله ﷺ : « لا طلاق ولا عتاق في إغلاق »(٢) والغضب الشديد يغلق العقل ويعطل الإدراك .

---

(١) رواه أصحاب السنن .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم .

٥ـ واختلفوا في طلاق الهازل فمنهم من قال لا يقع لأن الهازل لا عزم له ولا نية .

ومنهم من قال بل يقع لقوله ﷺ : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة »[١] .

٦ـ لا يقع الطلاق ممن لم يتزوج بعد . . ولا أثر له على من يتزوجها فيما بعد .

٧ـ لا يقع الطلاق إلا بألفاظه وهي في القرآن ثلاثة : الطلاق ـ والفراق ـ والسراح .

٨ـ « إذا حرَّم الرجل امرأته فهي يمين بكفرها »[٢] .

٩ـ من حلف بالطلاق ثم حنث فعليه كفارة يمين ، ولا يقع الطلاق على زوجته .

١٠ـ الطلاق المعلق بشرط كأن يقول : إن ذهبت إلى مكان كذا وكذا فأنت طالق . فقد قال ابن تيمية وابن القيم فيه : إن الطلاق المعلق الذي فيه معنى اليمين غير واقع وتجب فيه كفارة اليمين إذا حصل المحلوف عليه (إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام)[٣] .

لأن القصد فيه عند الرجل هو المنع من عمل ما ولا يقصد طلاق زوجته وإنما هو يحاول إلزامها .

وفي المقابل يجب النظر بجدية إلى طلب المرأة للمخالعة أو التفريق لتقصير الرجل بحقها . .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) ص ٢٦١/ المجلد الثاني ـ فقه السنة ـ سيد سابق .

ويجب إزالة العوائق من أمامها في تحصيل حقوقها.. مع تقديم النصح والدعم لها من القضاة أو لجنة الصلح .

فهي بحاجة لتوعيه وتبصير بعواقب هدم الأسرة خاصة مع وجود أولاد فيها .

من كل ما سبق نشعر أن بعض الرجال قد جعلوا من الطلاق ألعوبة على ألسنتهم.. أو امتيازاً على المرأة يرهبونها به ويتلاعبون في كثير من الأحيان ليعنتوا المرأة ويضاروها بتركها كالمعلقة.. فأين نحن من روح الدين..؟! وأين نحن من التقوى..؟! والإحسان..؟!

أين المودة والرحمة والميثاق الغليظ الذي أخذه الله عليكم عند الزواج..

أليست هذه الزوجة التي قال الله عنها ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : ١]..؟!

أليست هي السكن والشريكة في السراء والضراء..؟!

أليست هي أم أولادك ترعاهم وتسهر على تربيتهم وحمايتهم..؟!

فالله الله في المرأة.. والله الله في الأسرة.. فإن خراب الأمة يبدأ من ههنا .

* * *

٢ـ العبرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

لا بد من التنويه في البداية إلى أن الله يطلق في القرآن مصطلح : القرية ـ والقرن على الأمة .

يفاجأ القارىء بهذه النقلة الهائلة من أزمة تعصف داخل البيت. . إلى عاصفة تكاد تدمر مصير الأمة . وكم وقفت مذهولة وأنا استمع إلى القارى يقرأ سورة الطلاق وأحكامه وفجأة :

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ .

إنها الأمم الماضية التي دمرت. . انظروا في أحوالها وادرسوا أسباب دمارها. .

هل لهذا علاقة بالأسرة. . ؟! بالتأكيد إن الآيات تربط بين مصير الأمة ومصير الأسرة. . إن الأسرة هي بذرة الأمة. . فإن كان في هذه البذرة عيب أو آفة. . ظهرت للعيان في مستوى الأمة. . وإن أكل الظلم هذه البذرة ـ كالسوس حين يأكل القمح فلا يبقى منه إلا قِشْرُه ـ خرب البيدر كله. .

وهكذا حصل للأمم من قبلكم. . ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ تجبرت وتعالت عن الانصياع لأمر الله .

فجاءت العواقب مريرة وفظيعة ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ .

ليس هذا فقط . . بل إن الحملة عليهم شديدة ومستمرة . . والعواقب أكبر وأوخم مما نتوقع .

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا . . ﴾ .

إنه عذاب مستمر من الدنيا إلى الآخرة . . يا من تستهينون بشؤون الأسرة وتستسهلون هضم حقوق المراة . . حقاً إن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة . .

أرى أن الآيات بحاجة إلى دراسة تاريخية وواقعية شاملة لما يجري في الشرق والغرب من مظالم . .

أما الغرب فقد استهان بالأسرة كمؤسسة وأطلق العنان للعلاقات الحرة بين الجنسين . .

ولم يبق للأجيال محضن يرضعهم القيم ويعلمهم معنى الحياة . . فالأجيال تتفتح على الخمر والمخدرات والجريمة والانغماس في الجنس ولو كان شاذاً . . واغتصاب الأطفال والقتل في المدارس . . ثم الانتحار . .

وأما الشرق فقد أصابه الظلم في الأسرة . . ورؤية أمه المضطهدة الذليلة بالانكماش أمام الطغيان والانحناء والخنوع لكل مستبد فهم مقهورون مشوهون في إنسانيتهم جاهزون لاستقبال كل استعمار أو استبداد . . وهذا ما نراه في عالمنا الإسلامي بشكل خاص . .

فقد أصبحنا القصعة التي تتداعى إليها الأمم القوية (تكنولوجياً) . . وتتقاسم خيراتها . .

فهل من سبيل إلى النهضة والخلاص ؟ أجدني أكرر مرة أخرى مع شاعر النهضة في القرن الماضي حافظ ابراهيم :

من لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

لكم تغنينا بهذه القصيدة في محافلنا . . لكننا نقول ما لا نفعل . . نحن أمة العرب أرباب البلاغة وأمراء البيان والكلام . . نحارب التخلف والظلم بالخطب الرنانة . . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢] فمتى نهتدي ونصنع التغيير الحقيقي ؟

﴿ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الحديد : ١٦].

لا شك بأن التغيير يبدأ من الأفكار لكن لا خير في علم يكتفي بالكلام . (يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل) .

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ .

والخطاب هنا لافت للنظر . . فهو لأولي الألباب الذين آمنوا . . إنه يبدأ بأصحاب العقول ثم تأتي الصفة الثانية (الذين آمنوا) . . إن أصحاب العقول هم الجديرون بالانتباه لهذا القرآن لأنهم يربطون الأسباب بنتائجها . . إنهم يشهدون الأحداث الناطقة بالحق من حولهم وفي أنفسهم فهم أولى بنداء الله وخطابه لهم . . وإن من أعمل عقله وصل إلى الإيمان الراسخ . . وليس هذا لأي إنسان مؤمن . . إنها إشارة واضحة إلى فضل (أولي الألباب) . . وإن الله لا يريد لعباده أن يكونوا : صم بكم عمي فهم لا يعقلون . . بل يريد منا أن نختاره بكامل عقولنا . . ونخضع له عن قناعة ويقين ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] .

﴿ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ ومن أسماء القرآن (الذكر الحكيم) ـ والذكر : يذكرك بحقائق تعرفها لكنك تسهو أو تغفل عنها . وهي إشارة هامة إلى ما أعطى الله للإنسان من ذكاء روحي أو (ضمير) يميز الحقائق ويدركها . . لكن الهوى يطغى عليه ويشوش الرؤية فيأتي (الذكر الحكيم) ليزيح التشويش ويجلو الرؤية .

هذا الذكر جاءكم به رسول عظيم يتلو عليكم الآيات.. ويمكن أن يكون المعنى.. هذا الذكر هو الرسول..

﴿ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ لأنه يذكركم بالحق ويتلو عليكم الآيات الواضحة..

﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ هذا هو المقصد من إرسال الرسول وإنزال الآيات المبينات.. إنه الإنقاذ من الضلال والمتاهات إلى النور والهداية.. إنها المحبة والرعاية الإلهية للعباد المؤمنين الصالحين.. تباركت يا رب العالمين ما أرحمك وما أعظم حنانك..

إنك تنادي عبادك : هلموا إلي يا عبادي.. فقد أرسلت إليكم رسالة الإنقاذ.. فاحذروا أن تغفلوا عنها أو تتجاهلوها.. فإنها خلاصكم.. وإنها النور الذي يأخذ بأيديكم حتى تصلوا إلي..

ونلاحظ في الآية تخصيص (الذين آمنوا وعملوا الصالحات).. مع أن آيات الله تأتي للجميع.. لكن لن يستفيد منها إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. إن صحة الفكر والعمل يشكلان المؤهل الضروري للتفاعل مع آيات الله.. ويا حسرة على المسلمين.. إن آيات الكتاب بين أيديهم.. وتتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار.. ولكن لا تحرك فيهم ساكناً.. ولا تحيي منهم مواتاً.. وإنما هم في ظلم وظلمات.. فأين أفكارهم ؟ وأين أعمالهم ؟ لن يحدث التفاعل ما لم نجهز النوعية اللازمة من الإنسان المتلقي.. ولهذا تؤكد الآية مرة أخرى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ سيقوده النور إلى الله حيث الجنات « يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً » وهل من رزق أحسن من تلك الجنات.. ؟! صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله إذ قلت « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ».. وإن الآخرة لهي الحيوان لو كنتم تعلمون..

وهكذا رأينا ما فعلت الآيات الأربع السابقة بالنفوس المؤمنة. . فقد جالت بهم بين الترهيب والترغيب وحذرتهم من مصير الأمم التي استهانت بأوامر الله وخاصة ما تعلق منها بالأسرة. . وذكرتهم بنعمة الله عليهم بإرسال الآيات البينات مع الرسول لإنقاذهم. . ثم وعدتهم بأحسن الرزق. . جنات تجري من تحتها الأنهار. . فهل من مدكر ؟!

* * *

٣ـ ختام : قدرة الله وعلمه

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .

وأفضل تعقيب يأتي على الأحكام والتشريعات. . وعلى الترغيب والترهيب. . هو التذكير بمصدر الأحكام والآيات. . فهل تعرفون حقاً من الذي يأمركم وينهاكم. . ؟!

﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾

ما هي السموات السبع ؟ هل هي المجرات ؟ ولعل المجرات التي عرفها العلماء حتى الآن إنما تشكل السماء الأولى فقط. . أما قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ فإنها تشير إلى آفاق لم نستطع تحديدها بعد. . لكنها إشارة واضحة إلى وجود عدد من مثل أرضنا. . صالحة للحياة والعيش عليها. . أو بمخلوقات تتلاءم معها في الشروط والظروف .

﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ بين السموات والأرض. . فتأمل أيها الذرة التي تسبح وسط هذا العالم الذي لا يعلم حدوده إلا الله. . تأمل قدرة الله على ضبط هذا العالم. . بل هذه العوالم. . وكيف يسري أمره وحكمه في هذه العوالم. . ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعه﴾. .

فمن أنت حتى تعرض عن أمر الله وحكمه ؟!. . ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من مقاصد نزول الآيات أن تعلم أيها الإنسان مدى قدرة الله على كل شيء. .

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ ولتعلم مقدار علم الله بكل شيء . . علماً يحيط بكل أمر من كل جوانبه . . علماً كاملاً لا نقص فيه ولا وهم . .

فالله يريد بنا أن نزداد علماً لنزداد إيماناً ويقيناً وليزداد سعينا إلى الخير ولنحقق لأنفسنا سعادة الدنيا والآخره .

إنها رسالة محبة وحنان من الله مالك الملك . . المستغني عن طاعتنا وعبادتنا . . والذي نفتقر إليه في كل شأن من شؤون حياتنا . . ونفزع إليه في كل خطب يصيبنا . .

أفلا نكون أهلاً لهذا الحب ولهذه الرعاية ؟!

أفلا نثق بحكمة الله في تنسيق أمور حياتنا وقد نسق أمور السموات والأرض وأحكم في الخلق والتقدير ؟

بهذا الإيقاع الرائع نختم السورة وقد أقنعت العقول وشحنت النفوس لتأخذ الكتاب بقوة فتتجنب الهلاك في الدنيا وتنال جنات الله في الآخرة .

❊ ❊ ❊

المقاصد الموجود في السورة

بعد هذه الجولة السريعة مع معاني السورة وجدت أن من المفيد استعراض المقاصد فيها بحسب ترتيب الآيات .

رقم الآية	النص من الآية	المقصد
١	﴿من يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾	من مقاصد الدين : العدل وإنهاء الظلم
١	﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾	من مقاصد الدين : الصلح وإنهاء الخلاف
٢	﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾	من مقاصد الدين : التخلق بالإحسان
٢	﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾	من مقاصد الدين : التخلق بالإحسان
٢	﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾	من مقاصد الدين : إقامة العدل
٢	﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾	من مقاصد الدين : حفظ الدين
٢	﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ﴾	من مقاصد الدين : الموعظة والاعتبار
٢	﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾	من مقاصد الدين : الصحة النفسية ورفع الحرج
٢	﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾	من مقاصد الدين : الوصول إلى النجاة والفلاح
٣	﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾	من مقاصد القدر : الإنعام على المؤمنين بنتائج أعمالهم
٣	﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾	من مقاصد القدر : الإنعام على المؤمنين بنتائج أعمالهم

رقم الآية	النص من الآية	المقصد
٣	﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾	من مقاصد الدين : الرزق الحسن
٣	﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾	من مقاصد الدين : تقوية الصلة بالله
٤	﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾	من مقاصد الدين : التيسير ورفع الحرج
٥	﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾	من مقاصد الدين : إتمام النعم بالغفران والثواب
٦	﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾	من مقاصد الدين : رفع الظلم والإضرار
٦	﴿وائتمروا بينكم بمعروف﴾	من مقاصد الدين : التخلق بالإحسان
٦	﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾	من مقاصد الدين : رفع العسر والحرج
٧	﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾	من مقاصد الدين : رفع العسر والحرج
٧	﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾	من مقاصد الدين : تحقيق العدل مع الجميع
٧	﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾	من مقاصد الدين : رفع العسر والحرج
٨	﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾	من مقاصد القدر : عقاب المسيئين
٩	﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾	من مقاصد القدر : عقاب المسيئين
٩	﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾	من مقاصد القدر : عقاب المسيئين
١٠	﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾	من مقاصد الدين : تفعيل العقل (بالتذكر)
١١	﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾	من مقاصد الدين : تفعيل العقل (بالبيان)
١١	﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾	من مقاصد الدين : الهداية إلى النور

رقم الآية	النص من الآية	المقصد
١١	﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾	من مقاصد القرآن : حفظ الدين والفوز بالآخرة
١١	﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾	من مقاصد القرآن : الرزق الحسن
١٢	﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ﴾	من مقاصد الخلق : إعلام الناس بقدرة الله وعلمه

* * *

قضايا الأسرة في باقي سور القرآن

١ـ يبدأ الله في سورة البقرة بالتأكيد على حسن الاختيار عند الزواج وأن يكون الأساس الذي تبنى عليه الأسرة هو الإيمان بالله. . ولا بد أن يلتقي الزوجان على هدف واحد وأسلوب واحد في الحياة. . والدين هو أسلوب للحياة قبل كل شيء. . ولن تقوم للأسرة قائمة ما لم يتفق الطرفان على دين واحد ومسار واحد. . وهذا ما يجعل البداية موضوعية وراسخة في البناء . (الآية ٢٢١) .

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فلنتأمل التعقيب على هذا الأمر :

إن الله بهذا الأمر يريد البيان للناس كافة وليس للمؤمنين فقط. . فإن هذا الأساس يحتاج إليه كل الناس. . وهو أن يكون الزوجان على هدف واحد وأسلوب للحياة واحد . وإلا تمزقت الأسرة بين شد وجذب وتَصَدَّعَ بناء الشخصية عند الأولاد. . هذا الأمر فيه تذكير بالعواقب الوخيمة للأسر التي بنيت على الهوى والنزوة العابرة. . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

٢ـ ثم يتناول العلاقة الجنسية بين الزوجين فهي عنصر هام في الحياة الزوجية. . ويبدأ ببيان الحرام والحلال فيها ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ ويعقب على ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٢٢٢] فالتوبة والتطهر في غرفة النوم أمر هام في بناء الأسرة الطاهر. . ألا ترون أن الزوجين

يزرعان أعظم الزرع . . ؟ إنه الحرث المبارك . . إنشاء جيل جديد طاهر ونظيف ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ وعندها تغدو العلاقة الزوجية عملاً حضارياً والتزاماً إيمانياً يستحق البشارة من الله : ﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢٢٣]

٣ـ ثم يتعرض لخطأ كان يمارسه الرجال قبل الإسلام واستمر بعضهم عليه بعد إسلامهم . وهو الإيلاء : إذ كان أحدهم إن غضب من زوجته أقسم وآلى على نفسه إلا يقربها لزمن محدد أو بدون تحديد زمن . . فجاءت الآية لتنهي هذا الظلم بتحديد حد أقصى للرجل كي يعود إلى زوجته وهو أربعة أشهر فإن لم يرجع الرجل إلى زوجته خلالها كان لها أن تطلب الطلاق . . فلعلها تجد زوجاً آخر يعوضها خيراً عما لقيته مع السابق ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٢٦ـ ٢٢٧] إنه سبحانه يسمع ويعلم من الذي تسبب في خراب هذه الأسرة . . وإن اليقين بذلك لكافٍ في تعديل السلوك واجتناب الإساءة للشريك .

٤ـ وطالما وصل الأمر إلى الطلاق فلا بد من بيان أحكامه . . وتبدأ الآيات بعدة المطلقة « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ثلاث حيضات . والآية بليغة في التعبير . . فالزوجة مجروحة النفس بالطلاق وقد يدفعها غضبها لكرامتها إلى التسرع في قبول زوج جديد . . وإن النفس لأمارة بالسوء . . ولهذا تأتي الوصية ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ . . فالنفس بحاجة إلى مراقبة وترصد حتى لا تزل . . خاصة إذا أحست بوادر الحمل . . ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾ ويا لها من أزمة نفسية يستنفر الإيمان لعلاجها ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ ﴾ وإرادة الإصلاح تعود على الطرفين . . فقد تفكر المرأة بالإجهاض دون إعلام زوجها نكاية به ، أو لتتخلص من أي رابط يعيد الأمور إلى مجاريها . . فاحذري أيتها المؤمنة فإن الله ينهاك عن ذلك ، ويلتفت إلى الأزواج ليوصيهن بالنساء . . لماذا ينتقصون من

حقوقهن . . ؟! ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ والحياة كلها لا تستقيم بدون المعروف . .

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ ما هي هذه الدرجة التي جعلت الرجال ينظرون إلى النساء على أنهن مخلوقات من الدرجة الثانية ؟! إنها القوامة « الرجال قوامون على النساء » . . فقد أعطيت إدارة الإسرة للرجل لأن المرأة مشغولة بالإنسان وطفولته الطويلة المدى . . فهي لا تملك التفرغ للإدارة . . ومن الأفضل أن تكفى الشؤون الإدارية لتبدع في هندسة شخصية الإنسان . . قد يستلزم ذلك الطاعة من المرأة لزوجها باعتباره (مديراً) لأسرتها . . لكن القوامة مسؤولية كبرى توضع على كاهل الرجل بحيث يكون المسؤول الأول عن شؤون الأسرة مادياً ومعنوياً . . وإن هذا التوزيع للوظائف لا يبنى عليه أي تفضيل بين الجنسين في الدنيا والآخرة . . ولكنه سوء الفهم والتطبيق . ولهذا يعقب الله على الأمر ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٢٢٨] .

٥ـ ثم يحدد الطلاق بثلاث مرات : « الطلاق مرتان » والثالثة هي الأخيرة وعليكم أن تتخذوا قراركم بروية ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ وفي هذا الموقف لا يذكر العدل . . ولا بديل عن الإحسان في العلاقات الحميمية في الأسرة . . فلينتبه الطرفان إلى العدل أولاً ثم الزيادة عليه . . فكيف يفكر الرجل باسترجاع بعض ما أعطى لشريكته ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾ فقد كان العطاء مشتركاً . . قدمت أنت المال وقدمت هي نفسها لرعايتك ورعاية أبنائك . . ويستثني الحالة التي تكون الكراهية فيها من المرأة فتطلب الخلع خوفاً من العجز عن أداء حقوق هذا الزوج ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ فلقد رسم الله للأسرة حدوداً لا يجوز تجاوزها ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ فلا بأس من أن تعيد إليه مهرها الذي دفعه لها أو جزءاً منه . . بحسب التراضي بينهما . . وتلك حال لا يكون الزوج فيها مقصراً مع زوجته لكنها تنفر منه ولا تقدر على معاشرته ولهذا تفتدي نفسها بالمهر . أما

في حال تقصير الزوج أو قيامه بالإضرار بها فتستطيع أن تطلب التفريق لإضراره بها وعليه أن يؤدي لها كل حقوقها المالية.. ويؤكد الله مرة أخرى على مراعاة الحدود التي أحاط بها الأسرة ليحميها ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [٢٢٩].

ولا بد أن ينالهم عقاب الله في الدنيا والآخرة، لأن الله لا يرضى بالظلم وسننه في الحياة تعاقب الظالم.

فإن طلقها للمرة الثالثة فهي الحاسمة التي لا عودة بها ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ ﴾ إلا بعد أن تتزوج من آخر ثم تطلق منه بشكل طبيعي.. وليس كما يفعل الناس بالاتفاق مع (محلل). ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ فلعل التجربة الأخيرة قد علمتهما كيف يتعاشرا بالمعروف ويحفظا حدود الله في الأسرة.. وليحذرا من تجاهل هذه الحدود أو تجاوزها فهي القواعد التي تبنى عليها الأسرة وبغيرها ينهدُّ البناء.. ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٣٠] ولن يدرك قيمة حدود الله إلا الذين يعلمون سنن الحياة الزوجية والإنسانية.

٦ـ ويعود الله ليوصي الرجال مرة أخرى بالالتزام بالإحسان والمعروف عند الطلاق.. ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ بانتهاء العدة ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ ﴾ وبعض الرجال يمسك زوجته لا لأنه محب لها راغب في متابعة حياته معها.. ولكن ليضيق عليها حتى تضطر إلى المخالعة والتنازل عن مهرها.. وبعضهم يمسكها لإرضاء رغبة التحكم في حياتها وإذلالها في مجتمع يوحي إلى المرأة بأن لا حق لها بالخلاص منه طالما أنه يرفض فراقها.. وقد شهدت عينات من هذا النوع في مجتمعنا.. ومن المؤسف أن القاضي يقف عاجزاً أمام مثل هذه المشكلة..!!

وكل هذا يمارس تحت مظلة الدين.. والذين يزعمون أنهم الناطقون باسم الله هم الذين يفعلون ذلك.. فإليك المشتكى يا رب.. ألا تذكرنا

أوضاعنا بقول علمائنا القدامى : (إن الله ينصر الكافر لعدله ولا ينصر المؤمن إن كان ظالماً) . . فيا علماء الأمة هلا وضعتم خطة واستنفرتم جهودكم لتخليص الأمة من ظلمها لنفسها . . ولا أريد أن أتشاءم وأقول (لقد أسمعت لو ناديت حياً . . .) ليقيني بأننا في طور بداية البناء لنهضتنا ونرجو من الله أن يسدد خطانا . . كثيرون يفكرون ويطالبون بتغيير قوانين الأحوال الشخصية ـ لأنها لا تمثل شرع الله في كل شيء ـ وهو أمر هام لا أبخسه حقه . . لكن المشكلة أعقد من ذلك لأنني أرى كثيرين يتجاوزون القانون ويحتالون عليه في مجتمع تسوده الرشوة و(المحسوبيات) حتى داخل المحاكم . . فلمن تلجأ المرأة ؟ ولمن يلجأ المظلوم ؟!

إن المشكلة في العمق . . وقد تجذر العفن والظلم في النفوس . . ولا تغيير إلا بعلاجها وهو ما تفعله الآية هنا بإجراءات عدة :

١ـ ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ لأن الزوجين نفس واحدة فإن ظلم أحدهما الآخر فقد ظلم نفسه . . فما أروع هذه الإشارة . . كذلك فقد ظلم نفسه لأنه دساها بممارسة الظلم . . وعرض نفسه لغضب الله . . وظلم نفسه باستعداء زوجته عليه وأهلها . . وربما انضم الأولاد إليها . . مما يجعلهم يتوجهون إليه بالأذى ويكون هو الذي تسبب بذلك فظلم نفسه . . فهل يفهم الظالم ما يفعل بنفسه . . ؟!

إن ممارسة الظلم قد ترسخ ثقافة الظلم في الأمة . . وعندها لن يسلم أحد . . حتى الظالم . . فما من ظالم إلا وسيبتلى بمن هو أظلم منه في مجتمع يعشش فيه الظلم ولا يستنفر الناس فيه أنفسهم وقدراتهم لمكافحة ثقافة الظلم .

٢ـ ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ ﴾ وإن من أعرض عن الالتزام بأوامر الله كأنه يستهزىء بآيات الله ويظن أنها مثالية ولا تنفع في تقويم الحياة العملية . . فهل تقبل لنفسك مثل هذه الصفة ؟!

٣ـ ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ وعلى رأس هذه النعم ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ

﴿ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ فقد علمكم الله الأحكام والحكمة منها وعليكم أن تدركوا بأن كل هذه الأوامر لنفعكم . .

٤ـ ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ فالله ينصحكم ويوصيكم بأن تعتبروا من كل ما يجري حولكم وتتعظوا بآيات الله . .

٥ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ احذروا الاصطدام بسنن الله . . لأن من أهمل الأسباب سيصطدم بالنتائج .

٦ـ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلئن خدعت الناس بتظاهرك بالبراءة ولئن تلاعبت بالقضاء وخدعت القضاة أو رشوت هذا وذاك . . فإنك لن تخدع الله . . فهو بكل شيء عليم . . ولهذا العلم عواقبه . . فاحذر غضب الله وانتقامه . . ومال الدنيا لا يعدل شيئاً أمام غضب الله . .

فما أعظم هذا الحشد من التحذيرات التي جمعتها الآية . . لخطورة شؤون الأسرة . . ولخصوصية مشاكلها فمن يقدر أن يدرك حقيقة ما يجري بين الزوجين إلا الله سبحانه وتعالى ؟!

٧ـ وتلتفت الآيات إلى أولياء الأمور كي لا يتعنتوا في التجاوب مع رغبة الزوجين في الصلح والعودة بعد الطلاق ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لا تمنعوهن وتتعنتوا بفرض إرادتكم عليهن . . ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما من أمر إلا وينبغي أن يؤدى بالمعروف . . والقرآن يعلمنا كيف تكون الحياة أجمل وأكرم . . ولولا المعروف لأكل الناس بعضهم بعضاً . . ويحذر أولياء الأمور من النفس الأمارة بالسوء فقد يشعرون بأن هذا الرجل قد أهان كرامتهم حين طلق ابنتهم فيرغبون بالانتقام منه . . فيعظهم ويذكرهم بإيمانهم ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ويبين لهم الحكمة فما من دواء للمتحابين إلا الزواج . . وهما قد تراضيا ورغبا بالعودة فالزواج أزكى وأطهر للجميع ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٣٢] ألا تتذكرون أن الله أعلم بالظاهر والباطن ؟!

٨ـ ويلتفت إلى حقوق الأطفال فيأمر كل طرف بأن يؤدي واجبه تجاه الجيل الجديد الذي يحتاج إلى كل رعاية وحنان فيأمر الوالدات بالإرضاع ولكن بصيغة لافتة للنظر ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ إن الأم سترضع طفلها ولا تحتاج إلى وصية بذلك وقد جعل الله الأمر في غريزتها.. ولن يتخلف عن ذلك من الوالدات إلا القليل وأكثرهن يرفضن اضطراراً بسبب تعنت الزوج في النفقة أو المعاملة.. ولهذا تأتي التوجيهات... ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ وهو أمر يوصي به الأطباء الآن إلا في حالات خاصة .

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ فمن حق هذه الأم التي فرغت نفسها لرعاية طفلها أن يتولى أبوه ضمان حاجاتها المادية بالمعروف.. بما تعارف عليه الناس من مستوى في المعيشة لمثيلاتها . ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ ومن المؤسف أن المحاكم لا تدقق في مقدار هذه النفقة.. فربما يبقى المبلغ المفروض ثابتاً عبر السنين ورغم تغير الأسعار وقيمة العملة.. وربما يتظاهر الأب بضيق الحال فتكتفي المحكمة بفرض مبلغ ضئيل لا يكفي لقضاء بعض حاجات الطفل.. هذه الأمور قد تدفع الأم إلى رفض الإرضاع خاصة حين تتذكر أنها بعد أن تبذل جهدها في التربية والإرضاع.. سيؤخذ من حضنها في عمر معين بعد أن تعلق قلبها به وعلقت عليه الآمال وحبست نفسها عن الزواج من أجله ـ مما يؤدي إلى حرمان الطفل من لبن أمه وحضنها الدافىء بالحنان.. ولهذا يأتي التحذير ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾ وقد يحدث العكس برفع قيمة النفقة بشكل يرهق الوالد.. أو بحرمانه من رؤية طفله.. فيتابع الله التحذير ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ ﴾.. فإن مات الأب فما العمل ؟!

تباركت يا رب إنك لا تغفل عن تأمين كل الضمانات في كل الحالات للأم وابنها.. فالذي يرث المكاسب عليه أيضاً أن يرث النفقات والتكاليف ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ ﴾.. وقد يكبر الطفل أو تقتضي مصلحته الفطام من أمه فلا حرج لكن لا يجوز لأحد الأبوين أن ينفرد بالقرار ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا

﴿وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ ولا بد من التشاور بينهما في كل شؤون هذا الطفل وكأن الله يدربهما على ذلك بذكر حالة الرضاع . فإن تعسرت الأمور بين الطرفين . . أو اقتضت مصلحة الطفل أن يرضع من غير أمه ـ وكانوا في الماضي يرسلون أطفالهم ليرضعوا من نساء البادية لينشأ الطفل في صحة أفضل . . لكن الآن قد تحدث بعض الحالات من فساد لبن الأم ـ فيقول لهم الله : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ بشرط أن يتكفل الأب بالنفقة ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وكل هذه الأحكام فيها الوقاية للطفل والأبوين والأمة كلها . . وكل هذه الأحكام تحتاج عند التطبيق إلى التقوى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وأكثر من ذلك عليك أن تعلم وتتذكر ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٢٣٣] .

٩ـ ثم يبين عدة المتوفى عنها زوجها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فلها أن تتزوج بعد انقضاء عدتها بشرع الله وبالمعروف ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [٢٣٤] وهي للرجال والنساء . ثم يتحدث عن جواز خطبة المعتدة حتى تنقضي عدتها إلا تعريضاً بالكلام . .

١٠ـ ثم يعود إلى الحديث عن الطلاق . . طلاق المرأة غير المدخول بها ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لا حرج من الطلاق قبل الدخول إذا شعر أحدهما أو كلاهما بعدم الانسجام . ولكن لا بد من منح المطلقة متعة تطييباً لخاطرها ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [٢٣٦] وعلى المؤمنين جميعاً أن يرتقوا إلى الإحسان . أما إن كانت المطلقة قد حدد لها مهر ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ فالمرأة بالخيار إما أن تأخذ نصف مهرها أو تترك له المهر كله .

ويُرغِّب المتخاصمين بالعفو والتنازل ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ إن العفو أقرب لوقاية الجميع من الشر . فهل ندرك ذلك ؟! العفو هو الوقاية والحماية

وليس الانتقام . بل وأكثر من ذلك . الله يذكرهم وهم في أوج الاختلاف ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ألا تحب أن تكون صاحب فضل يعرف لك فضلك ؟!

ولو أنكر الناس كلهم فإن الله يعرف ويبصر من الذي دفع بالتي هي أحسن وحرص على الفضل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٢٣٧] . وتأتي آية ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ وسط هذا الحديث عن الزواج والطلاق وحقوق كل طرف في الأسرة. . لتشعرنا بأن كل هذه الأوامر والنواهي هي حزمة من العبادات تؤديها كما تؤدي الصلاة. . فليس الإسلام مجموعة طقوس تؤدى في بيت الله. . لكنه حياة كاملة تحياها وفق ما أرشدك الله. . ومن أعلم بك وبحاجاتك من ربك. .

١١- ويعود إلى الأسرة فيوجه الأزواج أن يوصوا لزوجاتهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ يوصي لها بالبقاء في بيت الزوجية سنة كاملة ينفق عليها من ماله قبل أن يتقاسم الورثة البيت إكراماً لها وللميثاق الغليظ الذي كان بينهما أما إن أرادت هي أن تخرج بعد العدة من البيت ـ رغم وجود الوصية لها ـ لتتزوج أو تعود إلى أهلها أو. . فلا حرج ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ طالما أنها لا تخرج عن أمر الله وعن المعروف الذي يثني عليه الناس. . ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ عزيز لا يحتاج إلى طاعتكم وإنما يأمركم بكل ما يفيدكم ويناسب حياتكم .

ويعود إلى متاع المطلقات ليؤكد أنه فرض على المتقين الحريصين على طاعة ربهم وليس هو زيادة خير يقدمه المحسنون فقط. . ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فأين التزام المؤمنين بهذه الآية ؟! إنهم يتهربون من النفقة ويغصون بها. . فكيف بأن تزاد عليهم (المتعة) ؟!

هل نسخ المسلمون هذه الآية أيضاً ؟! فما لي لا أرى أحداً يذكرها أو يحكم بها. . ؟!

ويأتي التعقيب على كل الأحكام السابقة : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ

ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . . لقد أنزل الله الآيات وبينها لكم لعلكم تربطون الأسباب بالنتائج . . كي تُفعِّلوا عقولكم فتؤدي دورها .

وأما سورة النساء فقد افتتحت .

١ـ ببيان أن الزوجين نفس واحدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ فاتقوا الله في الزوجات والذراري ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به الأرحام﴾ كل قرابة عن طريق الأم . . وكل البشرية انطلقت من رحم حواء . . فلا تقطعوا الأرحام . . إنها الأسرة الإنسانية كلها ولهذا بدأت الآية بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ .

٢ـ وتتحدث السورة عن تعدد الزوجات بسياق لا بد من التدقيق فيه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ .

ابتداء نعرف أن التعدد في الجاهلية كان بلا حدود ولا قيود . . والعالم كله في ذلك العصر كان يعدد في الزوجات والآن يعدد بالعشيقات والسؤال هنا : ما علاقة (القسط في اليتامى) مع التعدد ؟

١ـ بعضهم قال أن المقصود هي المرأة اليتيمة كان وليها يتزوجها فلا يعطيها مهراً كمثيلاتها وإنما يرغب فيها ويستأثر بها لجمالها ومالها . . فإن حرمت من الجمال حبسها ولم يزوجها حتى يستأثر بمالها . . فأمرهم الله أن يتركوا اليتيمات ويتزوجوا من غيرهن حتى لا يظلموهن . . وقد استفسر الصحابة عن ذلك فجاء الجواب في الآية (١٢٧) من السورة : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ (وقول الله وترغبون أن تنكحوهن : رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال . فنهوا عمن يرغبون فيها إلا أن يقسطوا لها من أجل رغبتهم عنها لو كانت قليلة المال والجمال) رواه البخاري عن عائشة .

٢ـ وبعضهم قال : القصد هو التشجيع على الزواج من الأرملة ذات الأولاد فيكون بذلك أعظم ضمان اجتماعي لليتامى إذ ينضم اليتامى إلى أسرة ترعاهم وتكون رعايتهم أيسر على الرجل .

على كل حال ينبغي أن نتأمل في الإصلاحات التي أدخلها الإسلام على تعدد الزوجات مع علمنا بأنه موضوع تاريخي شبيه بنظام ملك اليمين الذي لم يكن بالإمكان القضاء عليه في ذلك العصر دفعة واحدة . . لكن التطور التاريخي ألغى ملك اليمين . . وخفف كثيراً من حالات تعدد الزوجات . . حتى أنه في بعض المجتمعات لم يعد يمارس إلا في حالات الضرورة . . وفي بعضها الآخر منع كلياً . . وحين ننظر إلى الأمر على ضوء مقاصد الدين التي تتلخص في مصالح الفرد والأمة يمكن ان نقول : يمكن أن يكون التعدد ممنوعاً في بعض الحالات إذا أضر بمصالح الفرد والأمة وإذا تسبب في حدوث الظلم والعداوة ـ وهو رأي علال الفاسي في كتابه عن مقاصد الدين ـ أو نتج عنه كثرة العيال دون وجود ما ينفق عليهم وهو ما أشار إليه القرآن عند خوف الوقوع في الظلم أو كثرة العيال وضيق الحال ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [٣] . فالإصلاحات التي أدخلها الإسلام على هذا النظام هي :

١ـ تقييد العدد بحيث يكون الحد الأعلى أربعة .

٢ـ الالتزام بالعدل مع الجميع .

٣ـ توفر الاقتدار المالي على الإنفاق العادل على الجميع . وآخر ما أقوله في هذا المجال أن الأمر بيد المرأة لو شاءت لأوقفته إن رفضت أن تكون الثانية أو الثالثة . . وأما الأولى فيمكنها أن تشترط في عقد زواجها أن لا يعدد الرجل عليها . ويمكن أن نقول عن الآية ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ فخافوا من الظلم مع الزوجات فتكون الآية في الحث على العدل واتخاذ الأسباب لعدم الوقوع في الظلم .

٣ـ ويأتي الأمر بإيتاء النساء مهورهن هدية إلا إن تنازلن وأعطينكم منها

شيئاً . فالمهر حق خالص للمرأة . ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [٤] .

٤ـ ويذكر الله بعض أساليب الجاهليين في التعامل مع المرأة فقد كانوا يتوارثونها كالمتاع بعد موت زوجها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ أو يحبسون الغنية من النساء حتى تموت ويرثها وليها . ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ وتكرار التحذير من العضل يدل على كثرة شيوعه في الماضي والحاضر . . ويستثني اللواتي وقعن بالفاحشة ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ ﴾ أجل (مبينة) وليست مجرد شك أو تهمة . . ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ ما أجمل المعروف . . ولا حياة إلا بالمعروف . . هل هذا الأمر خاص بالزوجة التي تحبها . . ؟ فأي فضيلة لك إن أحسنت لمن تحب . . لكن الآية تقول ﴿وإن كرهتموهن﴾ حتى عند الكراهية . . فالخير لا ينحصر بما تحب وتكره ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [١٩] فقد يظهر من هذه الزوجة رعاية لك في مرضك أو كبرك ورعاية لأولادك . .

٥ـ ولئن كانت تورث في الجاهلية كالمتاع . . فقد كانت معرضة لأن تستبدل بغيرها في كل حين . . ولكن على الأقل لا تسلبها حقوقها ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ حتى لو كان قنطاراً أو أكثر . . ﴿فلا تأخذوا شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [٢٠] فقد يلفق لها تهمة ويفتري عليها ليسترد ما أعطاها من مهر . . وهذا هو البهتان والإثم المبين . وتحرك الآيات وجدان الرجل فتذكره بأن هذه المرأة التي يحاول ظلمها كانت موضع سره يفضي إليها بحبه وفرحه وحزنه ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [٢١] إنه عقد الزواج هذا العهد الشديد والكبير والذي على أساسه تركت المرأة أهلها ودارها وانضمت إليه . . هل نسيتم هذا الميثاق الغليظ وتبعاته . . ؟!

٦ـ ثم تأتي آيات أربع (٢٢ـ ٢٣ـ ٢٤ـ ٢٥) في بيان المحرمات من النساء على الرجال مع التأكيد على توخي الإحصان وتحاشي العلاقات غير الشرعية.. والتأكيد على فرضية المهر عند الزواج . والرخصة بالزواج من الأمة لمن كان فقيراً.. ويعقب على ذلك بثلاث آيات يبين فيها الحكمة من هذه التنظيمات .

٧ـ ثم يبين الله النظام الداخلي للأسرة فيعطي القوامة للرجل ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فالأسرة مؤسسة ولا بد لها من مدير متفرغ على إطلاع جيد بالأجواء الخارجية والأمور المالية والآية لا تصرح بتفضيل الرجال على النساء وإنما تشير إلى أن كل طرف فضل بخصائص . وبما أن الرجل هو الذي ينفق على الأسرة فهذا جزء هام من الإدارة ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾.. وفي الحقيقة لا أحد يحتج على القوامة لولا سوء الفهم والتطبيق الذي يمارسه بعض الرجال.. فبعضهم يظن أن القوامة تعني أن تكون المرأة بلا شخصية ولا إرادة يلعب بها كيف يشاء.. يمنعها من طلب العلم.. وقد يمنعها من زيارة أبويها وأقاربها.. وقد يمنعها من القيام بأعمال الخير.. لكن الصالحات سيحملن رسالة التصحيح وها هو الله يزكيهن ويمجد دورهن ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ خاشعات متصلات بالرضا مع الله ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ حافظات للعهود ساترات للعيوب ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ بما طلب الله حفظه.. فالأمر أمر الله وليس أمر الرجل ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فإن حصل نشوز من المرأة وجب علاجه . وتحدد الآية إجراءات لذلك ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾.. أما النشوز فقد فسر على أنه الاستعلاء وفسره بعضهم بالانحراف الأخلاقي الذي يقود إلى الفاحشة.. وأقول هي حالة تشبه الصوت النشاز الذي يشوش اللحن الجميل المتناسق.. والآية تحث الرجل على العناية بشؤون زوجته وأسرته.. وأن يبادر إلى الإصلاح بمجرد أن يحس ببوادر النشوز ﴿ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ أما الاجراءات المقترحة فهي أمور تعارف عليها الناس في

الماضي والحاضر لتقويم الاعوجاج . . لكنني أرى أنها وسائل وليست أهدافاً ثابتة وعلينا ان نميز بين الهدف الذي هو صيانة الأسرة من التصدع والوسائل المستعملة لذلك . . أما الهدف فهو ثابت لا يتغير وأما الوسائل فهي قابلة للتطوير والتغيُّر . . مثل وسائل النقل التي قال عنها الله تعالى ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل : ٨] فالهدف هو الركوب للانتقال لم يتغير . . لكن الوسائل قد تغيرت كلياً . . ونحن نعيش عصراً تطورت فيه أساليب التربية والتقويم وهناك تيار قوي يطالب بإيقاف الضرب كلياً ـ أو العقاب البدني ـ مع الأطفال لشدة أذاه . . وقد ظهرت بدائل جيدة تحقق التقويم بشكل أفضل . . وفي مجال الخلافات الزوجية ظهرت مؤسسات ومراكز تساعد في تسويح الأمور إضافة إلى الطب والإرشاد النفسي . . ولهذا أتوقف عند ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ وأقول مع أن الله وضع الضرب في أسفل القائمة كإجراء أخير ومحاولة إنقاذ . . لكنها وسيلة تاريخية مربوطة بزمانها ويمكن الاستعاضة عنه بوسائل أفضل . . وأكبر دليل على ذلك أن النبي محمداً ﷺ لم يلجأ إليه رغم الأخطاء التي ارتكبتها زوجاته . . وإن محمداً ﷺ يسبق زمانه بأشواط واسعة إذ أنه ﷺ لم يضرب امرأة ولا طفلاً ولا عبداً . . ومن تأَمَّل المقاصد في القرآن . . يدرك ضرورة المرونة في أخذ الأحكام بحيث يختار المؤمن ما يحقق الأنفع ولا عجب فإن القرآن قد نزل لأولي الألباب . وقد وصف الله عباده بأنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا ﴾ [الفرقان : ٧٣] . وإنما هم يعرفون كيف يضعون الأحكام في مواضعها .

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

وفيها تحذير من البغي والظلم للمرأة فإن الله هو العلي الكبير . . ولا يرضى لعباده الظلم .

فإن استفحل الأمر بين الزوجين وبات الأمر ينذر بالشقاق بينهما ـ والشقاق هو انفصال وكأن كل واحد يقف على الطرف الآخر من الشق . . ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ

﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ونجد صيغة الخطاب هنا قد تغيرت . . ففي حالة النشوز كان الخطاب للرجل كي يتولى العلاج أما هنا « وإن خفتم شقاق بينهما » فهناك جهة ثالثة بتوجه إليها الخطاب القرآني لتبادر إلى التدخل والعلاج . . فالذين يرون بوادر الشقاق بين الزوجين ـ ربما الأولاد أو الأهل والجيران ـ عليهم أن يسارعوا في تقديم المساعدة . .

والإجراء المقترح هنا هو التحكيم ﴿ فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ فالحكمان يفهم كل واحد منهما وجهة نظر صاحبه ومطالبه . . وهما أقدر على البحث والتفاهم لاستبعاد الانفعال من الساحة وقد يكون الحكمان أقدر على إيجاد حل يربح فيه الطرفان . . إن توفرت فيهما الحكمة والنوايا الطيبة ﴿إن يريد خيراً يوفق الله بينهما﴾ ويتوجه إلى الجميع بالنصح والتحذير فإن الله مطلع على كل حركة وكل خاطرة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ .

٨ـ ويذكر الله حالة نشوز الرجل ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ خير لهما وللأسرة وللأمة كلها . . والمرأة أول من يدرك ذلك فهي الحريصة على عشها وفراخها بحكم أمومتها . . ولها أن تفكر في مراضاته وبذل ما يمكن أن يكسر نشوزه . . إن فضلت أن تحمي أسرتها من التصدع . . فإن لم ترغب في ذلك وعزَّ عليها استعلاؤه فلا أحد يرغمها على ما لا تطيق والأمر إليها . . لكن الله سبحانه وتعالى لا يترك النفوس تتقلص وتنسحب مستاءة بل يدفعها إلى الايجابية والمرأة رمز الحنان والعطاء فمن يعطي إن أمسكت هي ؟ ولهذا يذكرها ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [١٢٨] فلئن لم يعرف أحد قدر ما تبذلين فإن الله لا تخفى عليه خافية .

٩ـ ويعود إلى التحذير من الظلم مع الزوجات ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ بعضهم يستدل بالآية على منع التعدد . . لكن الآية تتابع التحذير من الانسياق وراء العاطفة ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا

﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ تصبح الزوجة بجفاء زوجها لا زوجة ولا مطلقة . ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ في المعاملة بضبط مشاعركم وعدم الانجراف وراءها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [١٢٩] إن بذلت جهدك غفر الله لك هفواتك .

أما إن بلغت الكراهية مداها وأصبح الفراق أهون الشرين فإن الله يربت على القلوب ويُمنّيها بالتعويض : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [١٣٠] .

وفي سورة المائدة يبيح للمسلمين الزواج من الكتابية بشرطين : أن تكون مؤمنة بكتابها وأن تكون محصنة عفيفة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [٥] فالآية تضع أفضل الشروط للجميع . . إذ يشترط في الكتابية أن تكون مؤمنة بالله وعفيفة وهو ما يضمن سلامة التربية للأجيال . . ومن حقها أن تحصل على المهر ويصان شرفها فلا تمتهن لكونها غير مسلمة . . بل لها نفس الحقوق . . والإسلام بهذا يحقق انفتاحاً رائعاً وتسامحاً إيجابياً مع أصحاب الديانات السماوية . فهو يؤسس التعايش والتعاون على الخير بين شتى الأمم .

ـ وفي سورة النور تأتي قضية شائكة لها علاقة بجرائم الشرف . .

١ـ إذ لا يسمح في الإسلام بأن يتهم أحدٌ آخر بجريمة الزنا ما لم يأت بأربعة شهداء يشهدون على أنهم رأوا الفعلة بأعينهم . . فإن لم يأت بهم يقام على القاذف حد القذف وهو ثمانين جلدة . أما إن اتهم الرجل زوجته فليس من المعقول أن يأتي بشهود ليروا زوجته في مثل هذا الوضع . . فهل يؤخذ بكلامه دون تدقيق . . ؟ أم يترك ليأخذ حقه بيده ؟!

وهنا شرع الله (الملاعنة) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهنا يحق للمرأة أن تدافع عن نفسها ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ

﴿شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ . .
وهنا يصل بنا الأمر إلى أحد ثلاثة أحوال :

١ـ أن يتوقف الرجل عن دعواه قبل أن يقول الخامسة وهنا يجلد الرجل حد القذف وتترك المرأة .

٢ـ أن تتوقف المرأة وترفض المتابعة في الشهادات فتكون هي المذنبة ويقام عليها حد الزنا .

٣ـ أن يؤدي الطرفان الشهادات كاملة فلا يُعرف أيهما الكاذب فلا يعاقب أي منهما وأمرهما إلى الله . لكن يُفرَّق بينهما ويبقى مهرها لها ولا يجوز لأحد أن يتهمها بالفاحشة لا تصريحاً ولا تعريضاً وإلا ضرب حد القذف . وليس لأحد أن يمس كرامتها وكرامة أولادها بسوء. . فكيف يتساهلون مع جرائم الشرف. . ؟!

ويعقب الله على الحكم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [١٠] تأملوا كيف تكون حالكم لو لم يشرع الله لكم هذا الحكم. . ؟! لعمت الجريمة. . وانطلقت الألسنة تلوك الأعراض. . ولتعرضت المرأة والرجل إلى ظلم كبير. . وما كان للرحمن أن يترك عباده للمعاناة ولا يعينهم. . ويلوح للطرفين بالتوبة و﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ يشرِّع الحكم المناسب في الوقت المناسب . ولقد كان في هذا الحكم حماية كبيرة للمرأة أن يصان شرفها ولا يفترى عليها كي لا يبتز الرجل أموالها. . فهل تلاعن المرأة زوجها إن ضبطته بالزنا. . ؟! هذا أمر يحتاج إلى اجتهاد العلماء. . وإن كنت أرى أن هذا قليل الجدوى للمرأة والرجل . إذ أن القصد من الملاعنة بالدرجة الأولى حماية المرأة وشرفها من الاتهام زوراً ومن المضارة والتضييق لانتزاع حقوقها المالية . ثم إيجاد مخرج لرجل خانته زوجته ولا يملك أن يقدم شهوداً على ذلك . وفي كلتا الحالتين لن يكسب الرجل مالاً إلا أن تكون مذنبة فيقام عليها الحد ويرثها .

٢ـ وقد جعل الله للبيوت حرمتها فقد أحيطت الأسرة بسياج من الخارج فلا يُدخل عليها بدون استئذان بل المطلوب أيضاً (الاستئناس) وهو أن يشعر المستأذن أنه مرغوب فيه (راجع الآية ٢٧ من النور) . . كذلك وضعت ضوابط للأسرة في الداخل منها الاستئذان في ثلاثة أوقات ﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ لأن في هذه الأوقات مظنَّة انكشاف العورات . . وهو أمر مليء بالتنظيم واحترام الخصوصيات وتعليم الأدب للصغار وحماية لهم من التأثر بانكشاف العورات . ويوصي أهل البيت بالانتباه والانضباط في باقي الأوقات : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ ﴾ وكلها منافع لكم فتعلموا ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٥٨] وأما الكبار داخل الأسرة فعليهم أن يستأذنوا في كل وقت فلا يدخل أحدهم غرفة في المنزل حتى يستأذن ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٥٩] والعليم الحكيم لا يهمل شاردة ولا واردة إلا ويضع لها ضابطاً .

ويعود للتأكيد في سورة الأحزاب على حكم المطلقة قبل المساس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ فيذكر بحقوقها الثلاثة :

١ـ ليس عليها عدة فهي حرة من أي ارتباط مع طليقها .

٢ـ لها متعة يقدمها الزوج على قدر طاقته هدية فيها تطييب للنفس ودواء لجرحها .

٣ـ أن يتم طلاقها بأسلوب جميل . . الله أكبر ما أجمل هذا الدين إنه يطلب منا أن نتوخى الجمال والإحسان في كل عمل . . « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » والسراح الجميل يكون بالكلام الطيب وترك الشجار والتشهير

والغيبة لها بين الناس وبإعطائها المتعة هدية من نفسه دون أن يفرضها عليه أحد .

ـ ثم تأتي سورة المجادلة لتعرض صورة وضيئة لامرأة مؤمنة تناضل وتنافح عن كيان أسرتها وتأبى أن تستسلم لليأس . . وقد سبق أن تحدثت عنها في بداية بحثي هذا .

❊ ❊ ❊

ختاماً

أتمنى أن أكون قد وفقت في إيضاح بعض الإضاءات التي ركزت عليها سورة الطلاق . بعرض أقرب إلى الموضوعية ودون انحياز لأي طرف من الأطراف .

فلئن أصبت فمن فضل ربي . . ولئن أخطأت فمن نفسي . . طامعة في مغفرة ربي .

ولن أترك السورة قبل أن أتوجه إلى الله بدعاء للشباب ـ ذكوراً وإناثاً ـ بما ألهمني ربي . .

اللهم وفق شبابنا إلى حسن الاختيار عند الزواج .

وعلمهم من التعايش وقواعد الشراكة الزوجية .

ووفقهم لفقه آياتك في الكتاب . . وفي الآفاق والأنفس .

وامنحهم العلم والصبر كي لا تفشل زيجاتهم .

وأعنهم على رعاية أولادهم وتربيتهم بشكل أفضل مما فعلنا مع أولادنا .

واجعل منهم منارات للناس في إنصاف المرأة وتكريمها . . وفي تحقيق العدل بشكل عام ولعل نسبة الطلاق في عالمنا تتناقص من جديد بعد أن تحرك دولاب الوعي والتطوير إلى أعلى بعيداً عن ظلمات الجهل والجور . . متأسين برسول العدل والرحمة .

﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

حنان لحام ٦/ ٦/ ٢٠٠٧م

المحتوى

الإهداء ٥
مقدمة ٧
تمهيد ١٠
مدخل ١٥
بين يدي السورة ١٨
سورة الطلاق مدنية ٢٣

أحكام في الطلاق ٢٤
- أحكام للمرحلة الأولى من الطلاق ٢٨
- أحكام المرحلة الثانية ٣٦
- تعقيب ٤٠
- عدة اليائسة والصغيرة والحامل ٤٣
- تعقيب ٤٥
- الأمر بالإسكان والإنفاق في العدة وحكم الرضاع ٤٦

العبرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ٥٤
ختام: قدرة الله وعلمه ٥٩
المقاصد الموجودة في السورة ٦١

قضايا الأسرة في باقي سور القرآن ٦٤
ختاماً ٨٣
المحتوى ٨٥

